محمد متولى الشعراوى

هذا ديننا

ما يجب أن يعرفه المسلم

عن

الإسلام الإيمان

الإعتقاد اليوم الأخر

دار الروضة
للنشر والتوزيع

دار الروضة
للنشر والتوزيع

القاهرة ص.ب ٢٢٢٧
رمز بريدي ١١٥١١
يطلب من

مركز توزيع الكتاب الإسلامي

٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر

٥٠٦٦٨٨٤ - ٥٩١٣٤٢٤

نافذتك على الفكر الإسلامي
العربي والعالمي بما يقدم لك
من روائع الكتب التي تجمع بين
الأصالة والمعاصرة في مختلف المجالات

يديرها ويشرف عليها سامي الطرابيشي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع ٢٠٠٤ / ٢٠٦٨٣

كلمة الناشر

إن الحياة الأمم والشعوب تُقاس بمدى إسهام أفرادها في إحياء مجتمعاتها وإنقاذها من براثن الجهل والتخلف والتنطع في الدين والتطرف .

لذلك كان العلماء الهادون هم مصابيح الهدى ومنارات النور التي تهدى الحائرين في ظلمات الليل وسط تلاطم أمواج الشبهات والشهوات .

فالعلماء الهادون المرشدون هم ربابنة سفينتنا وسط موكب الحضارة الذي يعج بقيم وأخلاق شتى ، قد سيطرت المادة والنفعية والمصلحة الشخصية ، دون النظر إلى أخلاقيات أو قيم معنوية روحية .

والشيخ « محمد متولي الشعراوي » هو واحد من هؤلاء العلماء الأئمة المهتدين ، الذين فاض عطاؤهم ، فأنار سبيل الهدى بكتاب الله النور المبين وسنة المصطفى الهادي ﷺ ، وفَهْم الصحابة رضوان الله عليهم .

و « دار الروضة » تنشر تراث الشيخ « محمد متولي الشعراوي » رحمه الله ، انطلاقًا من نشر تراث هذا الداعية الإسلامي الذي نهل من علمه القاصي والداني ، في مصر وخارج مصر ، فكان علامة مضيئة في عالم الدعوة إلى الله .

وقد سبق لـ « **دار الروضة** » أن نشرت لفضيلة الشيخ سلسلة «**الأحاديث القدسية** »، وهى سلسلة غير مسبوقة لاقتْ نجاحاً كبيراً، من إعداد وتحقيق الأستاذ « **عادل أبو المعاطى** »، وكان ذلك فى حياة الشيخ رحمه الله.

ونحن إذ نواصل نشر عطاءات الشيخ وفيوضاته نقدم لقرائنا وأحباء الشيخ الجليل سلسلة « **هذا ديننا** ».

جزى الله الشيخ الجليل عَنَّا خير الجزاء، ونفعنا الله بعلمه وإشاراته ولمحاته النورانية.

دار الروضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن تراث الشيخ « محمد متولى الشعراوى » تراث زاخر بشتى فنون العلم ، مما يُعَدُّ موسوعة فى حَدِّ ذاته ، فأنت تجد فيه تفسير كتاب الله ، وشرح أحاديث نبوية ، وأخرى قدسية ، وتجد فيه السيرة والفقه والبلاغة والنحو والشعر ، وتجد فيه أصول الفقه ، وعلوم القرآن .

لذلك كان لا بد من تدوين هذا التراث ، وتصنيفه واستنباط موضوعات منه تضع القارئ أمام مواقع ومواضع موضوع بعينه يهمه ويهم كل المسلمين ، قد لا يستطيع تحصيله إذا استمع إلى تراث الشيخ المسموع من الشرائط .

وتدوين هذا التراث وإعداده وتحقيقه بصورة علمية منهجية ، مع المحافظة على روح الشيخ والإطار الدَّعَوى الذى حاط به كلامه ، فجاء عِقْدًا منظوماً ، وكذلك الحفاظ على آرائه التى نذر نفسه لها ، أو قُلْ لم يتخل عنها ، مثل : حرمة زرع الأعضاء البشرية ، سواء بالتبرع أو بالبيع ، وكذلك رأيه فى أن آزر المذكور فى القرآن هو عم إبراهيم وليس أباه .

فالأمانة العلمية تقتضينا أن نحافظ على هذه الآراء .

ونقطة أخرى تؤكد أهمية تدوين تراث الشيخ رحمه الله ، هى ملاحظة كانت دائمًا تثير تساؤلات الباحثين .

فالملاحظ أننا فى مصر قد احتفلنا كل الاحتفال بالمذاهب الفقهية التى جاءتنا من أقطار إسلامية أخرى مثل المدينة وبغداد ، فاهتممنا بالمذهب الشافعى والحنبلى والمالكى والحنفى كل الاهتمام .

مع أن « الليث بن سعد » ذلك الفقيه المصرى كان صاحب مذهب ، وصاحب فضل كبير على أصحاب المذاهب الأخرى ، ولكن تراثه ـ وهذه هى النقطة المهمة ـ لم يجد تلاميذ يتبنون هذا الفقه وهذا المذهب وهذا المنهج ، ولذلك لم نجده بين المذاهب الأربعة الرئيسية .

فتلاميذ الأئمة الأربعة توافروا على تراث أئمتهم دراسة وشرحًا وتفصيلاً وتفريعًا للمسائل وتلخيصًا وتدقيقًا .

فكانت النتيجة أن قويت هذه المذاهب ، وانتشر علمها فى الآفاق ، حتى أن الشافعى « رحمه الله » كان له مذهبه القديم فى العراق ، ولكنه عندما جاء إلى مصر وجد أن عند المصريين علماً وحديثًا لم يصل إلى علمه ، فأنشأ مذهبه الجديد فى مصر ، وهو الذى استقر عليه ، وجمعه تلميذ من تلامذته فى كتاب «الأم » .

إن تراث فضيلة الشيخ « محمد متولى الشعراوى » بحاجة إلى نفس هذا المنهج من توافر التلاميذ على كلامه وأحاديثه لتدوينها وإعدادها وتحقيقها تحقيقًا علميًا .

وهذه السـلسة « **هذا ديننا** » تاتى فى هذا الإطار ، وتسيـر على هذا النهج العلمى ، مع الوعى التام بالنظرة الشاملة التى علَّمنا إياها فضيلة الشيخ « محمد متولى الشعراوى » ، وهى نظرة الـقرآن الكـريم لمعطـيات الكون ، ومـتـطلبات العـبوديـة ، ومرتـكزات الأخـلاق القويمـة ، ومبـادئ الديـن الحنـيف ، مـع الأخذ بمعطيات العلوم المعاصرة .

والله من وراء القصد ..

وربُّ العزة سـبحانه قال عن المـطعمين الطعـامَ على حبه مـسكينًا ويتـيمًا وأسيرًا ، دون إنتظار لجزاء أو شكر من العباد :

﴿ إنما نطعمـكم لوجه الله لا نريد منكم جـزاء ولا شكورًا [٩] ﴾ (الإنسان)

فما بـالك بَمنْ يـطعم القلـوب والأرواح والعقول والأسـماع ،الأبصار زادًا نـورانيًا جرى على لسان داعية ،نحسبه أخلص لله دعوته .

إنما نحن أسباب فقط هيّأها الله لخدمـة هذا التراث ، عسى أن يجعله الله فى ميزان حسناتنا ...

إعداد وتحقيق
لجنة التراث بـ « دار الروضة »

(١) ... عَطَاءُ الرُّبُوبِيَّةِ

الحق سبحانه لا يحرم خَلْقاً من خَلْقه من عطاء ربوبيته [١]، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، والمطر ينزل على من قال لا إله إلا الله ومَنْ ستر وجوده تعالى . والهواء يتنفسه ذلك الذى يُقيم الصلاة ، والذى لم يركع ركعة فى حياته ، والطعام يأكله الذى يحب الله والذى يكفر بنعم الله .

ذلك أن هذه عطاءات ربوبية ، يعطيها الله تعالى لكل خلقه فى الدنيا ، أما عطاءات الألوهية [٢] فهى للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه إلى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفى ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس فى القرآن الكريم ، ذلك

---

(١) رب كل شيء : مالكه . والرب يُطلق فى اللغة على : المالك والسيد والمدبِّر والقيِّم والمنعم . والعباد مربوبون لله عز وجل أى مملوكون له . (لسان العرب ـ مادة : ربب)

(٢) الإلاهة والألوهة والألوهية : العبادة . وقيل فى اسم البارى سبحانه : إنه مأخوذ من أله يأله إذا تحيَّر ، فإن العقول تأله فى عظمته ، وأله يأله أى تحيّر ، والتأله : التنسك والتعبد . والتأليه : التعبيد (لسان العرب - مادة : أله)

الكتاب الذى لا يأتيه [1] الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بُدَّ أن يكون الخطاب للناس فى كل زمان ومكان ، منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة.

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاصٌ بقضية الإيمان فى القمة ، وهى الخضوع لإله واحد لا شريك له ، فالعبادة خضوع لله سبحانه بمنهجه «افعل» و «لاتفعل» يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

وقد قرن الحق سبحانه هنا بين العبادة والخلق ، فالحق سبحانه خلقنا فى الحياة لنعبده ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ [2] وَالإِنسَ [3] إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ (الذاريات)

---

(١) قال تعالى عن القرآن أنه : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت) والإتيان : المجىء. أتيته : جئته. قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٠٣٣): «أى: لا يكذبه شىء مما أنزل الله من قبل ، ولا ينزل من بعده كتاب يبطله وينسخه . قاله الكلبى ».

(٢) جَنَّ الشىء يجنُّه جَناً : ستره . وكل شئ سُتِر عنك فقد جُنَّ عنك . وبه سمى الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار . ومنه سمى الجنين لاستتاره فى بطن أمه . قال ابن سيده : الجن نوع من العالم سمُّوا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنهم استجنُّوا من الناس فلا يُرَوْن . قال رب العزة عن الشيطان ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ (الأعراف) .

(٣) الإنس : جماعة الناس ، والجمع أُناس . والإنس : البشر . وآنس الشىء واستأنسه : رآه وأبصره ونظر إليه . قال الأزهرى : أصل الإنس والإنسى والإنسان من الإيناس ، وهو الإبصار . وقيل للإنس إنس لأنهم يؤنسون أى يُبْصرون . [لسان العرب ـ مادة : أنس بتصرف]

إذن : فَعِلّة الخَلْق هى العبادة ، ولقد تَمَّ الخَلْق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً، ولكن «العلة والمعلول » لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .

نقول : ليس هناك علة تعود على الله جَلَّ جلاله بالفائدة ، لأن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين ... ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة .

فالحق سبحانه خلقنا لنعبده ، ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً فى مُلْكه [1] ، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة.

إن أفعال الله لا تُعلّل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها .

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكَفُّ عن المنهىّ عنه ، والمأمور صالح أنْ يفعل وألاّ يفعل ، فالعبادة ـ إذن ـ تستدعى وجود طائع ووجود عاصٍ.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار ، لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم مَنْ آمن فدخل الجنة ، ومنهم مَنْ عصى فدخل النار .

ولكن ، هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أو أنها منهج يشمل الحياة كلها .. فى بيتك ، وفى عملك ، وفى السعى فى الأرض ؟

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرِّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ١٩٩٤) عن أبى ذر .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط ، لما خلقهم مُخْتارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ، ما عدا الإنس والجن .

والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل مَنْ يشاء مقهوراً على عبادته ، مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً (١) فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٢) ﴾ (الشعراء) (٤)

فلو أراد الله أن يُخضعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته ، وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه .

فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . والآية : العبرة الدالة على الخير والرشد الصارفة عن الضلال والغى . والآية من القرآن سُمِّيت آية لأنها معجزة أو جزء من المعجزة وهى دالة على صدق الرسول . قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٣١) : « أى: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى » .

(٢) معنى خضوع الأعناق هو خضوع أصحاب الأعناق . وخضع الإنسان خضعاً : أمال رأسه إلى الأرض أو دنا منها . قال أبو عمرو : خاضعين ليست مِن صفة الأعناق إنما هى من صفة الكناية عن القوم الذى فى آخر الأعناق ، فكأنه فى التمثيل : فظلت أعناق القوم لها خاضعين ، والقوم فى موضع هم . [لسان العرب ـ مادة : خضع] .

- القلب ينبض [1] ويتوقف بأمرالله دون إرادة منا .

- والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .

- والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها .

وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى ، وليس لإرادتنا دخل فى عملها ، وما يقع علىَّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه ، لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث ، فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى ، ولا طائرة أن تحترق بى ، ولا كل ما يقع علىَّ من أقدار الله فى الدنيا.

إذن : فمنطقة الاختيار فى حياتى محدودة ، لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى ، ولا فيمن هو أبى ، ومَنْ هى أمى ، ولا فى شكلى : هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح ؟ أو غير ذلك .

إذن : فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج أن أفعل ، أو لا أفعل.

الحق سبحانه له من كل خلقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية ، ولذلك خلقنا ، ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه .. فى أن نطيعه أو نعصيه .. فى أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عمَّا يُغضبه حُبّاً فيه ،

---

(١) نبض العِرْق ينبض نبضاً ونبضاناً : تحرّك وضرب . والنبض : الحركة . وما به نَبَضٌ أى حركة ، ونبضت الأمعاء تنبض : اضطربت . والمنابض : مضارب القلب . [لسان العرب - مادة : نبض] .

وتفعل ما يطلبه حباً فيه وليس قهراً ، فإذا تخليتَ عن اختيارك إلى مُرادات الله في منهجه تكون قد حققتَ عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى ، وتكون قد أصبحتَ من عباد الله ، وليس من عبيد الله .

فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه ، ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله في التكليف .

ولذلك فإن الحق جَلَّ جلاله يُفَرِّق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد .

يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ[1] (١٨٦) ﴾ (البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[2] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

---

(١) رَشَدَ يرشُد : أصاب وجه الصواب والخير والحق . والرشد : ضد الغيّ والضلال . والرشد : ضد السَّفَه وسوء التدبير . بلغ رشده : بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور . قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾ (الأنبياء: ٥١).

(٢) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار. قال ابن برى : الهوْن الرفق، قال الشاعر :

هَوْنَكُما لا يَرُدُّ الدَّهْرُ مَا فَاتَا   لاَ تَهْلِكَا أَسَفاً في إِثْرِ مَنْ مَاتَا

[لسان العرب ـ مادة : هون] قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٢٤) : « وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صبب وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشي بتضعُّف وتصنُّع . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار » .

اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ[1] غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[2] وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ[3] قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ[4] مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا[5] عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .... ﴿٧٤﴾ ﴾ (الفرقان)

---

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . والغرام : اللازم من العذاب والشر الدائم والبلاء والحب والعشق وما لا يستطاع أن يُتفصّى منه . قال الزجاج : هو أشد العذاب . [لسان العرب ـ مادة : غرم] .

(٢) قال الفراء : لم يقتروا عما يجب عليهم من النفقة . وقتر على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [اللسان ـ مادة : قتر] .

(٣) القوام : العدْل . قال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٣٢٥) : « أى : ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بُخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا » .

(٤) اللغو : السَّقط وما لا يُعتد به من كلام وغيره ، ولا يُحصل منه على فائدة ولا نفع . واللغو فى الأيمان : ما لا يعقد عليه القلب مثل قولك : لا والله ، وبلى والله . وجماع اللغو هو : الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة . [لسان العرب ـ مادة : لغا] .

(٥) خَرَّ يخر خروراً : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخَرَّ ساجداً : أسرع إلى السجود ، والتعبير كناية عن سرعة الاستجابة لله . ويُقال : خَرَّ فلان : مَرَّ مسرعاً . وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾** ﴾ (الفرقان) يحتمل :

- لم يهجموا عليها متعجِّلين ليبطلوها وليصدوا الناس عن اتباعها كفعل الكافرين .
- أنهم لم يمرُّوا معرضين عنها ، كأنهم صُمٌّ وعمى كما يفعل الكافرون ، ولكن المؤمنين يُقبلون عليها بفهم وبصيرة وإيمان وحُبٍّ وإعزاز .

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسمَّاهم عباداً .

ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم « عباد » .

نقول : إن هذا فى الآخرة ، وفى الآخرة كلنا عباد ، لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى ، لأن الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار[1] ، ونصبح جميعاً عباداً لله ، مقهورين على طاعته ، لا اختيار لنا فى شىء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية فلم يقهره فى شىء ، ولا يلزم غير المؤمن به بأىٍّ تكليف.

بل إن المؤمن هو الذى يُلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد إيمانى

(١) حُضِرَ المريض واحتُضر إذا نزل به الموت ، وحضرنى الهمُّ واحتضرنى . وحضره الموت : جاءه . قال تعالى : ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ (البقرة : ١٣٣).

مع الله تبارك وتعالى ، ولذلك نجد أن الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعاً في التكاليف .

وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ(١) عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ (البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾

(البقرة)

أي : أن الله جَلَّ جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذي يدخل في عقد إيماني مع الله .

ويجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

---

(١) الكتاب : الفرض والحكم والقدر . كُتب : فُرض . وكتب يكتب : خطَّ ودوَّن الكلام ، ويُستعار ذلك للمعاني كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ (المجادلة: ٢٢) أي : سَجَّله وأثبته فيها كما يُدوَّن الكلام في الصحف أو يُنقَش على الأحجار فيبقى ولا يُمحى . وقوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المائدة: ٢١) أي : قدَّر لكم أن تملكوها ووعدكم بذلك في صحف موسى .

إن هذه هى أركان الإسلام ، ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية .

إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تُقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، فالعبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

فالعبادة منها ما يصل العبدَ بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض ؛ لأن الله يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ(١) أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم(٢) مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ (هود)

فكلُّ حركة فى الحياة تؤدى إلى عمارة الأرض فهى من العبادة ، فلا تأخذ

---

(١) ثمود : قبيلة من العرب الأُوَل . ويُقال : إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح ، بعثه الله إليهم . والثَّمْد فى اللغة : الماء القليل الذى لا مادَّ له . والثَّماد : الحُفَر يكون فيها الماء القليل . وماء مثمود : كثر عليه الناس حتى فنى ونفدَ إلا أقله . [لسان العرب ـ مادة : ثمد] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٥٠) : «كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة».

(٢) أنشأه الله : خلقه . وأنشأ الله الخلق : ابتدأ خَلْقهم. وفى التنزيل العزيز ﴿ **وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧)** ﴾ (النجم) أى : البعثة . [لسان العرب ـ مادة : نشأ] .

العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سيُبنى عليها الإسلام.

فلو جعلتَ الإسلام هو هذه الأركان فقط لجَعلْتَ الإسلام أساساً بدون مَبْنى ، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام.

إذن : فالإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض .

فالخلافة فى الأرض تقتضى أن يَعْمُر الإنسان الأرض ، وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعْمُرَ الأرض فلا بُدَّ من أعمال تنظم هذه الحركة .

إذن : فكُلُّ ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى .

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل .

ونقول لأى منهم : كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم ؟ ساعة مثلاً . والزكاة كم تأخذ منك فى العام ؟ يوماً واحداً [1] فى العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك ؟

فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟

---

(١) هذا باعتبار أن زكاة الأموال مثلاً تُخرَجُ عندما يحول الحول، أى يمر عام وتكون قد بلغت النصاب وهو ٨٥ جراماً من الذهب فيُخرج رُبُع العُشر وهو ٢,٥ ٪.
وكذلك زكاة الزروع تُخرج يوم الحصاد، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ﴾ (الأنعام: ١٤١) وفى هذا تفصيل.

إنك لا تأخذ أكثر من ساعة فى اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم فى السنة لإخراج الزكاة ، وتقضى شهراً فى السنة تصوم نهاره ، وتحج مرة واحدة فى عمرك .

فماذا تفعل فى بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام ، فمن الذى سيصنعه لك ؟

إن هذا الرغيف يمرُّ بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها ، ويحتاج إلى أكثر من علم ، وأكثر من حركة ، وأكثر من طاقة .

فرغيف الخبز الذى تأكله يأخذ جَهْداً كبيراً ، فانظر كم من الطاقات احتاجها ، وكم من الرجال احتاجه العمل .

فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم ؟

لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جَهْد منك.

مثال آخر : أنت تلبس جلباباً ، كم أخذ هذا الجلباب من غَزْل ونَسْج وخَيْط ؟

إذن : فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك فى الحياة ، وتقول : أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هى العبادة ، ولكن العبادة هى أن تطيع الله فى كل ما أمر ، وأن تنتهى عن كل ما نهى فى إطار قوله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴿٦١﴾ ﴾ (هود)

إن كل عمل يُعتبر عبادة ، وإلا ستكون « تنبلاً » فى الوجود ، والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ، ولا تعتمد على عمل غيرك .

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا فى الأرض من أجل أن نَعْمُرها ، ومن حُسْن العبادة أن نتقن كل عمل ، وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معاً ، ونكون قد أدَّيْنَا مسئولية الإيمان ، وطَابَقَ كل فعل من أفعالنا قولنا « لا إله إلا الله » .

والحق سبحانه وتعالى حين قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة) قصَر العبادة على ذاته الكريمة ، لأنه لو قال : نعبدك وحدك فهى لا تؤدى المعنى نفسه ، لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا .

ولكن إذا قلتَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .. تكون قد حسمتَ الأمرَ بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها ، فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه « افعل » و « لا تفعل » .

لذلك جعل الحقُّ سبحانه الصلاة أساسَ العبادةِ ، والسجود هو مُنتَهى الخضوع لله [1] ، لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شىء فيك وتضعه على

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (فصلت: ٣٧) فالسجود لله هو أساس =

الأرض عند موضع القدم [1] ، فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله ، ويتم هذا أمام الناس جميعاً فى الصلاة ؛ لإعلان خضوعك لله أمام البشر جميعاً [2].

ويستوى فى العبودية الغنىّ والفقير ، والكبير والصغير ، حتى يطرد كُلٌّ مِنَّا الكِبْر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعاً ، فيساوى الحق جل جلاله بين عباده فى الخضوع له ، وفى إعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة)

= العبادة والخضوع لله، وهو اعتراف بالربوبية والألوهية لله، وهذا يتضح من دعاء رسول الله ﷺ فى السجود : «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره ، وشقَّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين من حديث على بن أبى طالب .

(١) أخرج الدارقطنى فى سننه (١/ ٣٤٨) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » وكذا الحاكم فى مستدركه (١/ ٢٧٠) وأخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/ ٣٣٣) من طريق آخر بلفظ « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تَجُزْ صلاته ».

(٢) يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢/ ٣٠٣) طبعة دار الشعب : « السجود هو أعلى درجات الاستكانة ، فلتمكن أعز أعضائك وهو الوجه ، من أذل الأشياء وهو التراب ، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنه أجلب للخشوع ، وأدل على الذل ، وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع إلى أصله ، فإنك من التراب خلقت ، وإليه تعود ، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل: سبحان ربى الأعلى . وأكده بالتكرار فإن الكَرَّة الواحدة ضعيفة الأثر ، فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل ، لا إلى التكبر والبطر ».

ينفى العبودية لغير الله ، أى : لا نعبد غير الله .

إذن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة) أعطتْ تخصيص العبادة لله وحده ، لا إله غيره ، ولا معبود سواه .

والحقُّ سبحانه يقول فى سورة هود :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ (هود)

إذن : فقد أُحكِمت آيات الكتاب وفُصِّلَتْ لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة .

فهل مَنْ عبد الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عبد الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج « افعل » و « لا تفعل » لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ... ﴿٢﴾ ﴾ (هود)

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ... ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة)

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويُقدِّسونها لَكاَن على الرسل أن يقولوا للناس : اعبدوا الله.

ولكن هنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... ﴿٢﴾ ﴾ (هود)

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجِّهة إلى غير مَنْ يستحق العبادة ، فيريد سبحانه أولاً أن يُنهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نَفْى وإثبات ، مثل قولنا « أشهد ألا إله إلا الله » هنا ننفى أولاً أن هناك إلهًا غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه وحده .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لَكَان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ... ﴿٢﴾ ﴾ (هود)

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفِى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شىء قائماً على أساس سليم .

فالبداية : ألا تعبد الأصنام والشركاء ، ثم وَجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر وطاعة النهى فهى ـ إذن ـ تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى.

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من : قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [1] الأذى عن الطريق [2] .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه ، أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

فكلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون ، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون ، وما لم يَرِد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله .

فإذا نظرت إلى نسبة ما تُؤمَر به ، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال

---

(١) إماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عَنْ طريق الناس حتى لا يؤذيهم. والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

الحياة ، لوجدتَ أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أَوْجُه الحياة.

فالأمر لواحد ، والنهى لواحد ، والعبادة والخضوع لواحد ، وهذا ما جعل الطُّغَاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم يرفضون الانصياع لهذه الدعوة ، واعتبروها شيئاً عُجَاباً ، فقالوا :

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ[1] ﴿٥﴾ ﴾ (ص)

ونحن نعلم أن العَجب هو إظهار الدهشة ، وانفعال النفس من حصول شىء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومُقدِّماتها .

إذن : تظهر الدهشة ، ونتساءل : كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثتْ تلك الدهشة وذلك العجب ؟

ولكن لماذا العجب ؟

كان المنطق يقتضى أنه إذا رَأَوْا شيئاً هندستُه بديعة وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون مُنسَّقاً موجوداً من قبله .

كان المنطق يقتضى أن يبحث هذا الإنسان عمَّنْ خلق هذا الكون ، وأن يُلحّ فى أن يعرف مَنْ صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم مَنْ صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟

---

(١) أمر عُجاب وعجيب وعُجَّاب ، على المبالغة ، يُؤكَّد به . وأعجبه الأمر: سرَّه ، وأعجب به كذلك . [لسان العرب - مادة : عجب] .

كان القياس أن تتلهفوا على مَنْ يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان.

لا بقُوتك خلقتَ هذا الكون ، ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يَدُرْ بخَلَدِك [1] أن تتساءل : مَنْ صنع لك ذلك ؟

إذن : فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل.

إذن : أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به ، وهو الإله الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا .

فهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأىِّ فائدة ، فسبحانه مُنزَّه عن فائدة تعود عليه ، لأنكم إنْ عبدتموه فلن تزيدوا فى مُلْكه شيئاً ، وإنْ لم تعبدوه فلن تنقصوا من مُلْكه شيئاً .

ولكن هذه العبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يُخرج كل الخَلْق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجَّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ، فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف الإنسان منا أن

---

(١) الخَلَد : البال والقلب والنفس . وجمعه أخلاد . يُقال : وقع ذلك فى خَلَدى أى فى رَوْعى وقلبى . [لسان العرب - مادة : خلد] .

يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامتْ أموركم غير الاختيارية .

فكان المنطق أن يعبدوا الله وحده ، لا أن يعبدوا الشركاء الذين لاينفعونهم ، ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم .

بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهُبُّ على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يُعبَدُ مثل هذا الصنم ؟

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ (الأنعام)

فهذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها .

فما الذى صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟

وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟

وهذا أول منطق فى بطلان ألوهية غير الله ، فمَنْ عبد الشمس مثلاً ، ماذا أعطتْه الشمس ؟ ومَنْ كفر بها كيف عاقبته الشمس ؟

إنها تشرق لمن عبدها ، ولمن لم يعبدها . والصنم الذى عبده العابدون ، ماذا صنع لهم ؟ لا شىء .

وهذا الصنم لم يُنزل عقاباً بمَنْ لم يعبده ، بل إن الذى انتفع هو مَنْ لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعملَ فكره ليبحث عن خالقٍ لهذا الكون.

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق .

فالعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضُّرَّ للخصوم ، ولا النفع لنفسه ، أو لأشياعه وأنصاره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤) ﴾ (الأنعام)

فالضلال أن تريد غايةً فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غايةٌ فى ذلك الزمان أن يُقدِّسوا ، ويُقدِّروا مَنْ ينعم عليهم بالنعم ؛ إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين .

فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضَلُّوا الطريق ؛ لأنهم ساروا فى النعمة فى حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبِّب .

وهذا ضلال مبين ؛ لأنه فتنة خَلْق فى خَلْق ، فالإنسان الأول الذى جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض ، وأقبل على شمس ، وأقبل

على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمدُّه بالأقوات [1] .

كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ؛ لأنه لم يصنعها ، ولا ادّعى أحد أنه صنعها ، أمَا كان من الواجب أن يُفكِّر تفكيراً يسيراً فيمن خلق [2] له هذه الأشياء ؟

وما دام الله هو خالق كل شيء ، فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة ـ كما قلنا ـ معناها طاعة الأمر وطاعة النهى .

وما دام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإنْ خالفتَ المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق ؛ لتعيد لكل منها صلاحيته ؛ لذلك فهو سبحانه الأَوْلَى بالعبادة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾ (الأعراف)

---

(١) يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الكهف: ٥١) .

(٢) والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذا ، فيقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ (النمل)

أيشركون فى عبادة الله مَنْ لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله ، إن مَنْ أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم ، وتنازلوا عن العقل .

وكان الواجب أن يكونوا عقلاء ، فلا يتخذوا من الأصنام آلهة .

وهناك آية أخرى تفضح زعمهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ (الحج)

ونعلم أن البشر فى المعامل قد عرفوا العجز عن خَلْق خلية واحدة ، وهى التى لا تُرى بالعين المجردة .

ولذلك أوضح الحق سبحانه أن المسألة ليست أمر خلق ؛ بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو فى خرطومه شيئاً ، لن يستطيع أحد أن يستردَّ المأخوذ منه ، فقد ضَعُفَ الطالب والمطلوب .

والخَلْق ـ كما نعلم ـ أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها ؟

إنها لا تَخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل ، بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل لِدقَّة الخَلْق بالبعوضة ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ (البقرة)

وعندما ضرب الله هذا المثل استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى .

قالوا : كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ، ذلك المخلوق الضعيف ، الذى يكفى أن تضرب بأىِّ شىء أو بكفِّك فيموت ؟

لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مَثَلاً بالفيل الذى هو ضخم الجثة شديدة القوة ، أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان ، وضرب لنا مثلاً بالبعوضة ، فقالوا :

﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ... ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة)

ولم يفطنوا إلى أن هذه البعوضة الدقيقة الحجم خَلْقها معجزة ؛ لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها .. فلها عينان ، ولها خرطوم دقيق جداً ، ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الإنسان ، ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الإنسان .

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ، ولها دورة تناسلية ، ولها كل ما يلزم لحياتها .

كل هذا فى هذا الحجم الدقيق.. كلما دَقَّ الشىء احتاج إلى دِقَّة خَلْق أكبر .

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلاً عندما اخترع الإنسان الساعة كان حجمها ضخماً جداً ، لدرجة أنها تحتاج إلى مكان كبير .

وكلما تقدَّمتْ الحضارة وارتقى الإنسان فى صناعته وحضارته وتقدُّمه أصبح الحجم دقيقاً وصغيراً ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تَدِقُّ ، حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل .

وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيراً ، والآن أصبح فى غاية الدقة ، لدرجة أنك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك .

وفى كل الصناعات عندما ترتقى يصغر حجمها ؛ لأن ذلك يحتاج إلى صانع ماهر ، وإلى تقدُّم علمى .

وهكذا حين ضرب الله مثلاً بالبعوضة وما فوقها ... أى بما هو أقل منها حجماً ، فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى دِقَّة الخَلْق ، فكلما لَطُفَ الشىء وصَغُرَ حجمه احتاج إلى دقَّة الخَلْق .

والقرآن الكريم ينافس هؤلاء المشركين مع الله غيره ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل)

فخلق السماء والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم لا أحد يستطيع أن يدَّعِى أنه خلقها . وحتى لو سألت الكفار أنفسهم من خلقهم سيقولون : الله

لأن عملية الخلق والإيجاد يدعيها مَنْ لم يعملها ، ومع ذلك لم يَدَّعِها أحد من البشر ؛ لأنها عملية أكبر من أن يدعيها أحد ؛ لأنها فوق قدرات البشر .

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٢٥) ﴾ (لقمان)

فالحق سبحانه أراد أن يخاطب عقول المشركين فى مسألة الخلق ، فقال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾ (النحل)

هنا كان يمكن أن يقول : أتجعلون مَن لا يخلق مثل مَنْ يخلق ؟

ولكن الحكمة هنا أن هؤلاء يعبدون الأصنام ، وبذلك يكونون قد جعلوا هذه الأصنام نِداً [(١)] لله تعالى ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم هذا التصوُّر فى عقولهم من أساسه .

كيف تُسوُّون مَنْ يخلق بِمَنْ لا يخلق ، أنتم تعبدون الأصنام ، وهى مصنوعة من الحجارة ، فلها مادة ، ولها صورة تكون عليها ، والمادة التى صنعتم منها هذه الآلهة مخلوقة لله .

والصورة أيضاً مخلوقة ، وأنتم الذين صنعتموها بأيديكم ، فهل المعبود يصنعه العابد ؟

---

(١) الند : المثل والنظير . والجمع : أنداد . وقال الأخفش : الند الضِّد والشِّبْه . [لسان العرب - مادة : ندد] .

المفروض أن يكون المعبود أدْنى من العابد ؛ لأنه ليس مثله ، لا فى المادة ولا فى الصورة ، فالمادة مخلوقة لله ، والصورة من صُنْع البشر .

وفوق ذلك ، فإن هذه الأصنام لا تملك لكم ضَراً ولا نفعاً ، والدليل على ذلك أنه حين يمسكم الضر تلجأون إلى الله ، وتَنسَوْن هذه الأصنام.

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ(١) مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾ ﴾ (الإسراء)

فالحقُّ سبحانه يُذكِّر المشركين ومَنْ كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل مَنْ كانوا يدعونه ، سواء من الأصنام أو غيرها، ولا يلجأون إلا لله حتى يُنجيهم من الغرق ويُخرجهم إلى البَرِّ .

إذن : فمَنْ يعبد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ مَنْ يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه.

فهو سبحانه الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق ، هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً .

---

(١) ضل الشيء يضل ضلالة : ضاع . وأصل الضلال الغيبوبة . يقال : ضل الماء فى اللبن إذا غاب . وضل الشيء : خفى وغاب . [لسان العرب ـ مادة : ضلل].

وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر[1] ، حينما أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول[2] .

وقال لنا : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ...﴾ (الأعراف)

قلنا : ﴿ بَلَىٰ ... ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف)

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويُوسِّط مَنْ يسأله أن يدعو له الله سبحانه فهؤلاء المشركون .. كيف يلجأون إلى الله حينما يقعون فى الشدائد ، مع أنهم كافرون ؟

قالوا : لأن الإنسان فى المواقف الصعبة لايستطيع أن يكذب على نفسه ؛ لأنه يعلم أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر.

قال تعالى :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ (فاطر)

---

(١) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ (١٧٢الأعراف)

(٢) العهد الأول هو إشهاد ذرية بنى آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله رب الخلائق كلها، أما العهد الثانى : فهو التكليف على يد الرسل فى افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول .

والحق سبحانه بعد أن بيَّن لنا أن عطاء ربوبيته الذى يعطيه لخلقه جميعاً ، المؤمن والكافر، كان يكفى لكى يؤمن الناس، كل الناس .. أخذ سبحانه يبين لنا آيات من عطاء الربوبية.

يَلْفِت الحق سبحانه الناس إلى خَلْق الأرض فى قوله تعالى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا[1] ... ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة)

والأرض هى المكان الذى يعيش عليه الناس، ولا يستطيع أحد أن يدَّعِى أنه خلق الأرض أو أوجدها ، أو حتى شهد خَلقها ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[2] ﴿٥١﴾﴾ (الكهف)

فالحق سبحانه أوجد السماوات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظَرْف للكون ، وتَمَّ خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخَلْق ، ولم يشهد خَلْقهم أحد من الخلق ، فلا يصحّ أنْ يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقهما ، وهو الله .

وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلتْ عن الشمس ثم بردتْ.

---

(١) فراشًا : أى وطاء لم يجعلها حَزْنة غليظة لا يمكن الاستقرار عليها . والفرش : الفضاء الواسع من الأرض [لسان العرب ـ مادة : فرش].

(٢) عضد الرجل : أنصاره وأعوانه . والاعتضاد : التقوِّى والاستعانة . وفلان يعضد فلاناً أى : يعينه . واعتضدت بفلان : استعنت . والمعاضدة : المعاونة . [لسان العرب ـ مادة : عضد].

وهذه مجرد ظنون لا تثبُت ؛ لأن أحداً منهم لم يَرَ خَلْق السموات والأرض، وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ (الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء ، وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجىء هؤلاء المضلين قبل أن يُوجَدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخَلْق ، بل طرأوا ـ مثلنا جميعاً ـ على السماوات والأرض .

وكان من الواجب ألاّ يخوضوا فى أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه ، وكذلك قولهم عن خَلْق الإنسان كقرد ، وهم لم يكونوا مع الله لحظة خَلْق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له .

لا يمكن ـ إذن ـ أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده .

والخَلْق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يُحلل مواد موجودة بالفعل .

إذن : فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل ، ولم يكن هناك أحد مع الله ساعةَ خلق الخَلْق ليقول لنا : كيف تمَّ ذلك ؟

ولأن الحق لم يُشْهِد أحدًا على كيفية خَلْق السماء والأرض وخَلْق الإنسان ،

فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، ثم انخفضت درجة حرارتها ، فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها .

وقول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .﴿٥١﴾﴾ (الكهف)

يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء .

فإن حُدِّثتم : كيف خُلِقْتم بصورة تختلف عَمَّا جاء فى القرآن ؟ فقولوا : كذبتم .

وإن حُدِّثتم : كيف خُلِقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؟ فقولوا : كذبتم .

لأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض والإنسان ، وحده سبحانه ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا .. ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة)

فقول الحق (جعل) يجعلنا ننتبه إلى الفارق بين « الخَلْق » و « الجَعْل » .

فالخلق قد عرفنا أمره ، وهو إيجاد الشيء من العدم ، أما الجَعْل فهو توجيه ما خُلِق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا بالنسبة للبشر ، أما الحق سبحانه فقد خلق المادة أولاً ، ثم هيّأ وأعدَّ ما خلق ليؤدى مهمته فى الكون .

فقوله تعالى (فراشاً) تُوحى بأنه أعدَّ الأرض إعداداً مريحاً للبشر ، كما تفرش على الأرض شيئاً ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشاً يُريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أن خُلِقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فِراشاً للإنسان .

ورغم أن الحضارة تقدَّمتْ وزادت الرفاهية ، إلا أن الأرض ظلَّتْ فراشاً رغم ما وُجِد عليها من أشياء لَيِّنة ، فكأن الله تعالى قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل .

فكل جيل رُفِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة ، وكشف الله سبحانه لنا من العلم ما نُطوِّع به الأرض و نجعلها فراشاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[1] (٤٨) ﴾ (الذاريات)

---

(١) المهاد : الفراش ، وقد مهدت الفراش مَهْداً : بسطته ووطّأته . وأصل المهد : التوثير . يقال : مهدت لنفسى ، ومهَّدت . أى : جعلت لها مكانًا وطيئاً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : مهد].

ويقول : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾** ﴾ (الزخرف)

المَهْد هو فراش الطفل ، ولا بد أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وَجد فى الفراش أىَّ شىء يتعبه فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يُريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نَوْماً مريحاً .

ولكن الذى يُمهِّد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى ، يجعلها فراشاً لعباده ، فالحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، ذلولاً [1] ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان ، يسعى فيها ، ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى إلى السماء ، فيقول :

﴿ **وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ... ﴿٢٢﴾** ﴾ (البقرة)

والبناء يفيد المتانة والتماسك ، فالسماء سقف متماسك متين ، رغم أننا لا نرى شيئاً يحملها حتى لا تسقط علينا .

والحق سبحانه يقول :

---

(١) الذَّل والذُّل : اللين ، وهو ضد الصعوبة . فهو ذلول ، يكون فى الإنسان والدابة . وذَلَّ الطريق : ما وُطِّىء منه وسُهِّل . [لسان العرب ـ مادة : ذلل] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ[1] تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾﴾ (الرعد)

ويقول : ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ (لقمان)

فالله خلق السماوات مرتفعةً قائمة بقدرته ، لا تستند على شيء ، وأنتم تنظرون إليها ، وتشاهدونها بغير دعائم ، أو بعمد غير العمد التى نعرفها ، ولكن الحق سبحانه رفعها بقوانين الجاذبية.

ويُؤكِّد الحق سبحانه هذا المعنى بقوله :

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ (الحج)

فالحق سبحانه خلق السماء وأبدعها ، ويحفظها من أن تقع على الأرض ، فهو الذى خلقها ويصونها ويحفظها .

والسماء هى هذا السقف المحفوظ الذى نراه ، والذى إذا نظرتَ فيه لا تجد فطوراً[2] ولا شرخاً ولا اعوجاجاً ، وهى قائمة بلا عمد ، فالسماء ممسوكة بقدرة الله تعالى .

---

(١) عمد الحائط يعمده عَمْدًا : دعمه . والعمود : الذى تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يُعمد بالأساطين المنصوبة . وعمد الشيء : أقامه . والعماد : ما أقيم به . وعمدت الشيء فانعمد أى: أقمته بعماد يعتمد عليه . { لسان العرب ـ مادة : عمد } .

(٢) تفطّر الشيء : تشقَّق . والفَطْر : الشق . وجمعه فطور . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴿١﴾ ﴾ (الانفطار) ، أى : انشقت . ويقول تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ (الملك) .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ (فاطر)

فالله تعالى يطمئننا أنه وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدِّر لهما أن تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله .

أى : لا يستطيع أحد إمساكهما ، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحد أن يُمسِكهما ويمنعهما من الزوال .

وقد جعل الحق سبحانه من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال ، فقد أوجد سبحانه قوانين الجاذبية ؛ لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ، ويحفظهما بقدرته من الزوال .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ(١) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٢) ﴿٤٧﴾ ﴾ (الذاريات)

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٣٧) : « بأيد : أى : بقوة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد » . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : يدى] : « اليد : القوة ، وأيده الله ، أى : قوّاه ».

(٢) « أوسعه ووسّعه : صيّره واسعًا . وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الذاريات) أراد : جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، جعل أوسع بمعنى وسّع » [لسان العرب ـ مادة : وسع]، وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٣٧) : « أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى » .

إن كمال قدرة الله تعالى أحكمت خَلْق السماءِ ؛ ولذلك كان خَلْق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس ، فقال تعالى :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (غافر)

لماذا ؟

لأن الناس من الأرض قد خُلِقوا ، وبما فى الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خَلْق الناس ، فالناس أبناء الأرض ، واقتياتهم منها ، وبقاء حياتهم عليها .

فالحق سبحانه خلق السماوات والأرض على غير مثال ، فسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج سابق ، وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خَلْق السماوات والأرض ، لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة .

وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يُقسم أن خلق السماوات والأرض مسألة أكبر وأدقُّ من خَلْق الناس ، لكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الذاريات)

ففى قوله ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ إشارة إلى خَلْق هذا الكون المرئى وغيرالمرئى ؛

لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون مَا لا يُدركه العقل ، ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هى من قدرة الله سبحانه وتعالى .

فالخالق سبحانه خلق السماوات بإتقانٍ بعضُها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أىَّ خَلَل فى هذا الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا(١) مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ(٢) فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ (الملك)

و (فطور) هنا معناها شقوق .

إذن : فالحق سبحانه ـ بتمام قدرته – يعطى الشىء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلِق له ، فلا يَظُن ظَانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه ، وخلق السماوات و الأرض بتمام إبداع وإحكام .

وهو القادر سبحانه على أن يفطرهما ، ويجعلهما غير صالحتين فى أىٍّ وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر(٣) ، والنجوم تُطْمس ، والجبال تُنسف .

---

(١) السماوات الطباق : سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضًا . أى: بعضها فوق بعض ، وقيل : لأن بعضها مطبق على بعض . [لسان العرب ـ مادة : طبق] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٩٦) : « أى : بل هو مصطحب مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخافة ولا نقص ولا عيب ولا خلل » . قال ابن منظور فى اللسان : « المعنى : ما ترى فى خلقه تعالى السماء اختلافًا ولا اضطرابًا ».

(٣) كورت الشمس : جُمِع ضوءها ولُفَّ كما تُلَفُّ العمامة . وقال قتادة : كوِّرت : ذهب ضوؤها . وقال عكرمة : نُزِع ضوؤها . [لسان العرب ـ مادة : كور] .

ولكن الله حفظ السماء من أن تسقط على الأرض ، فلنطمئن ونحن نعيش على الأرض ، فالحق سبحانه جعل الأرض فِراشاً ، أى : ممهدة ومريحة لحياة الإنسان .

وحفظ الحق سبحانه السماء بقدرته جَلَّ جلاله ، فهى ثابتة فى مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ (البقرة)

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة ، فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، فينبت به الزرع والثمر .

وهذا رزق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق ، والرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصلُ عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رزق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه .

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال .

قال ﷺ : « **يقول ابن آدم : مالى مالى .. وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت** »(١).

هذا هو رزق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة ، ورزق الولد ، ورزق فى الطعام ، ورزق فى البركة .

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق ، وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية إلى أن نفكر قليلاً ، فيمَنْ خلق هذا الكون ؛ لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه .

ومن عناصر بقاء الإنسان على الأرض الماء ، فالحق سبحانه وتعالى يُنزل الماء فتقوم به الحياة ، مصْداقاً لقوله جَلَّ جلاله :

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء)

فإنزال المطر هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده ، ذلك أن عملية المطر فيها خَلْق بحساب ، وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضاً ، وفيها عوامل لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) ، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٣٤) من حديث عبد الله بن الشخير ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد وليس من شرط الشيخين ».

والحق حين خلق الأرض وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتمَّ عملية البَخْر بسهولة ، وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء .

وتتم هذه العملية بحساب دقيق ، حتى لا تُغرق الأمطار الأرض ، أو يحدث فيها جفاف ، ثم سَخَّر الريح لتدفع السحاب إلى حيث يريد الله أن يُنزِل المطر ، وإلى قِمم الجبال الباردة ؛ ليصطدم بها السحاب فينزل المطر .

كُلُّ هذا بحساب دقيق فى الخلْق ، وفى كل مراحل المطر ، والماء الذى ينزل من السماء هو الماء الصالح للرَّى وللسَّقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات .

وشاء الحق سبحانه ذلك لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تُحوِّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مُقطَّراً صالحاً للشرب والرى .

ولكن قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة)

هل هذا القول يعنى أن الماء فى السماء ؟

لا ، إن الماء أصْلُه فى الأرض ، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لِرِيِّنا ، ولا

لريِّ زَرْعنا ، إنه مِلْح أُجَاج[1] مُرٌّ ، والذى يُوجَد على الأرض منه هو مخزون فقط ؛ ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية التى تجعله لا يفسد ، ولا تتغير صفاته وطبيعته .

ثم تتسع رقعة الماء على قَدْر اليابس ثلاث مرات ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعاً يجعل للبخر مصادر كبيرة واسعة ، هذا البَخْر هو عملية التقطير الإلهى .

إن إنزال الماء من السماء هو الذى نراه على هيئة المطر ، لكن تسبق نزوله مراحلُ متعددة هى بَخْرٌ وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها .

تلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مُؤخَّراً ، بدليل أننا حاولنا تقليد هذه الدورة ؛ بأن نُبخِّر الماء المالح ونُكثِّفه لنستخرج ماء مُقطَّراً ، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية ، فكوب واحد من الماء المقطَّر يستغرق وقتًا ويستلزم جُهْداً وتكاليف ، بينما المعمل الإلهى يُدرُّ لنا ماء غدقاً[2] لا حصر لكمِّياته .

إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندرى ، إن الدورة المائية تبدأ بِصعود البخار من الماء، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة ، فينزل ماء عَذْباً .

ومن دِقَّة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العَذْب دائماً أعلى من

---

(١) الملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة . مثل : ماء البحر . [لسان العرب ـ مادة : أجج].

(٢) الغدق : المطر الكثير العامّ . يقول تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** (١٦) ﴾ (الجن) . [لسان العرب ـ مادة : غدق] .

منسوب الماء المالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العَذْب ، فَسيطغى عليه ويُفسده ، ولا نجد ما نشربه .

لكن الخالق الحكيم سبحانه جعل منسوب المياه العَذْبة فى الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر ، وذلك لا يسبب ضرراً .

ويُوضِّح لنا الحق سبحانه دَوْر الرياح فى إنزال الماء ، فيقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً(١) سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأعراف)

فالرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض ، فتروى التربة التى نحرثها .

وهكذا تكون الرياح بُشْرى فى أشياء :

الشئ الأول : تحريك طبقات الهواء ، وإلا لفسد الجوُّ فى كل جماعة تستقر فى مكان ، ولاستنشقوا الهواء الفاسد .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٢) : « أى : حملت الرياح سحابًا ثقالاً . أى : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسْلمتُ وَجْهِى لمن أسْلَمتْ لَهُ المزْنُ تَحملُ عَذْبًا زُلاَلاَ
وأسْلمتُ وَجْهِى لمن أسْلَمتْ لَهُ الأرْضُ تَحمِلُ صَخْرًا ثِقَالاَ

والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ؛ لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتُحرِّكه وتنزل به مطراً على الأرض ، ونحرث نحن الأرض ونزرعها .

وهو سبحانه قال : (بُشْراً) ، لأن هناك فرقاً بين : بُشْرى ، وبُشْراً . فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. ﴿٦٩﴾﴾ (هود)

أى : التبشير .

لكن بشراً جمع بشير ، وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر .

وهى بين يدى رحمته ، لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ... ﴿٥٧﴾﴾ (الأعراف)

فأقلّتْ سحاباً ، أى : حملتْ سحاباً . ونحن نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ، ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجوِّ العُلْيا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة ، فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر .

وترى هذا فى الماء المقطّر الذى يُحضِّرونه فى الصيدلية ، فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ، ويغلى الماء ، فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد ، فيتكثف البخار ليصير ماء .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ... ﴿٥٧﴾﴾ (الأعراف)

فالحق سبحانه يسوق السحاب بالرياح إلى حيث يريد سبحانه ، فأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة فى غير مكانك ، ونحن ننتفع ـ فى مصر ـ بماء النيل ، برغم أن المطر ينزل فى جنوب السودان ، وفى هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذى ينزل من سماء مصر لكُنَّا قد هلكنا عطشاً .

فالحقُّ سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون ، لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه.

ولكن هذا الإعداد لم يتوقف عند الحياة المادية ، بل إن الله كما أعدَّ لنا مُقوِّمات حياتنا المادية أعدَّ لنا مقومات حياتنا الروحية.

وإذا قرأت فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④﴾

(الرحمن)

لوجدتَ القرآن يُعطينا قيم الحياة ، التى بدونها تصبح الدنيا كلها لا قيمة لها ؛ لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة فى الآخرة ، فإذا لم نأخذها بمهمتها فى أنها الطريق الذى يوصلك إلى الجنة ، أهدرت قيمتها تماماً .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق فى هذه الآية بالسماء ، فقال سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ... ﴿٢٢﴾﴾ (البقرة)

ليلفتنا إلى أن الرزق لا يأتى إلا من أعلى .

وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء ؛ لأنه رزق مباشر محسوس منًّا ، والماء ينزل من السماء فى أنْقَى صوره مُقطَّراً ، فكل ما يأتينا من السماء فيه عُلُو ، ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاء .

فقد أنزل الحق سبحانه من السماء ماء فى أنقى صوره ، لينبت به الثمرات ، التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها ، والإعجاز الذى فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

أنداداً : جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه .

وأىّ عقل فيه ذرة من فكر ينأى (١) عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ، ولا يُشبه بالله تعالى أحداً ، فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خَلْقه ، واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته .

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكلٍّ منَّا عقلاً يفكر به ، لو عُرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ؛ لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق .

---

(١) النأيُ : البعد . نأى ينأى : بَعُد . والنأىُ : المفارقة . ونأى بجانبه : تباعد عن القبول . ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ (الإسراء : ٨٣) أى : أنأى جانبه عن خالقه متغانيًا مُعرضًا عن عبادته ودعائه . { لسان العرب ـ مادة : نأى } .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ (البقرة)

أى : تعرفون هذا جيداً بعقولكم ؛ لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمَنْ ذَا الذى يستطيع أن يدَّعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟

ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يدَّعى ـ ولو كذباً ـ أنه هو الذى جعل الأرض فِراشاً ، وجعل السماء سَقْفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر ، وأنبت الزرع ؟

لا أحد ..

إذن : فأنتم تعلمون أن حكم العقل كله لله وحده ، وما دام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد ، فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ .. (١٦٥) ﴾ (البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أنداداً ؟

لأنهم يريدون ديناً بلا منهج ، يريدون أن يُرْضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم ، وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم .

عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً .

ولذلك فكل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتُحِل الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان .

فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا ، ولا من منهج الإيمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله ، ومن نِعَم الله ، ومن جنَّته فى الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يُحبون الله حُباً شديداً ، والذين كفروا رغم كل ما يدَّعُون فإنهم ساعةَ العُسْرة يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ (يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟

لأن الإنسان لا يغُش نفسه أبداً فى ساعة الخطر ، لأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لا يمكن أن يوجد لله أنداد ، ولكن الإنسان يتخذهم لأغراض دنيوية ، فإذا جاء الخطر يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه يعلم يقيناً أنه وحده الذى يكشف الضُّرَّ .

وهذا مثل حلاق الصحة الذى يعالج الناس دجلاً ، حتى إذا مرض ابنه أسرع به إلى الطبيب لأنه يغش الناس ، ولكنه لا يمكن أن يَغُشَّ نفسه .

ولقد كان الأصمعى[1] واقفاً عند الكعبة ، فسمع أعرابياً يدعو فيقول :

« يا ربِّ ، أنت تعلم أنِّى عاصيك ، وكان من حَقِّك علىَّ ألاَّ أدعوك وأنا عاصٍ ، ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمَنْ أذهب ؟ » .

فقال الأصمعى : « يا هذا ، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك »

والحق سبحانه يضرب مثلاً لهؤلاء الذين يدعون الله مخلصين له الدين ساعة الشدة ، فإذا انفرجت الشدة إذا هم يشركون ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُم يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(العنكبوت)

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر ، لكنهم ما إن وصلوا إلى الشاطئ حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

---

(١) هو عبد الملك بن قريب ، أبو سعيد الأصمعى ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان . ولد بالبصرة عام (١٢٢هـ) كان كثير التطواف بالبلدان ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، توفى عام (٢١٦هـ) عن ٩٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/ ١٦٢) .

فيُجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة ، ونَسُوا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا[1] لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ (إبراهيم)

فالناس إذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين ، ولكنهم لم يدعوا الله دعوة الحمد ، ويقولوا :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[2] ﴿١٣﴾﴾ (الزخرف)

لم يقولوا ذلك ، ولكنهم دَعَوُا الله من خوفهم من مخاطر البحر ؛ لأن الدعاء عادة يأتى للإنسان فى وقت الشدة .

كما أن قول الله تعالى :

﴿ فلما نجاهم إلى البر ... ﴿٦٥﴾﴾ (العنكبوت)

يدلُّ على أنهم ركبوا فى الفُلْك ، وتعرضوا لعطب لا تُنجِى منه الأسباب ؛ لذلك دَعَوُا الله .

---

(١) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ (إبراهيم: ٣٠) ، أى : أمثالاً شركاء .

(٢) أقرن له وعليه : أطاق وقوى عليه واعتلى . وقوله : ﴿ وما كنا له مقرنين ﴿١٣﴾ ﴾ (الزخرف) أى : مطيقين قادرين عليه [لسان العرب ـ مادة : قرن]، يقول ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٣) فى معنى الآية : « لولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه » .

وفى آية أخرى يقول تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (يونس)

كلمة ﴿ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس: ٢٢) معناها لا يوجد مَنْجَى ، ولا مَخْرج لهم ، ولا مَهْرَب ، ولا أسباب الدنيا تنفع فى هذا الموقف ، فهنا لا ملجأ لهم إلا الله ، فَدَعُوا الله مخلصين .

وكلمة ﴿مُخْلِصِينَ﴾ (يونس: ٢٢) معناها يقين اليقين فى الإيمان ، مع أنهم كانوا فرحين حينما كانوا فى أمان واطمئنان ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يخدع نفسه حينما يداهمه الخطر ، فحينما يحيط به الخطر وتعجز أسبابه عن دفعه يلجأ إلى الله ، ويترك الشركاء ، فتجده بفطرته يقول : يا رب .

فمعنى ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴿٦٥﴾﴾ (العنكبوت)

أى : لم يَعُدْ فى بالهم إلا الله ، فالآلهة التى كانوا يعبدونها والأصنام وغيرها لا تأتى على بالهم ؛ لأنهم يعلمون أنها كاذبة ، فليس أمامهم إلا الإله الحق ، وهو الله .

إذن : دعوا الله مخلصين ، أى دعوة دين خالص لله ، لا تشوبه شائبة شرك ظاهر ، أو شرك خفى ؛ لأن الإنسان لا يخدع نفسه ، فيلجأ إلى الله مباشرة .

إذن : ساعةَ تتعلق الأمور بمصالح خاصة يتنبه الإنسان فيها للحق ، فالإنسان فيه فطرة إيمانية ، فإذا طَهُرَتْ الفطرة الإيمانية فى الذات البشرية لا توجد إلا قوة واحدة هى قوة الله .

ولذلك ، حتى الملاحدة حين يقع الواحد منهم فى مأزق يقول : يارب .

وأى إنسان يقع فى مأزق تجده يصيح دون أن يشعر قائلاً : يارب .

معنى هذا أنه توجد فطرة إيمانية عند كل إنسان ، ولكن الأغيار البشرية هى التى طمستْها ، فإذا نامت الأغيار البشرية بسبب حدث من الأحداث ، تطفو الفطرة الإيمانية ، ويلجأ الإنسان إلى الله وحده .

★★★★

(٢) ... الحلال الطيب .. وخطوات الشيطان

من رحمة الله عز وجل على عباده أنه لم يقصر الخطاب على الذين آمنوا ، وإنما وَسَّع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم ، فقال ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** ﴾ ، فكأنه خلق ما فى الأرض جميعًا للناس جميعًا .

يقول تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)** ﴾ (البقرة)

وهذا ما قلنا عنه : إنه عطاء الربوبية لكل البشر ، مَنْ آمن منهم ومَنْ لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم .

وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود ، فهو يُوجِّه الخطاب لهم جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم .

وكأن الخطاب يقول للكافرين : حتى ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من المؤمنين

الأشيـاء الحلال واستعـملوها ؛ لأنها تفيدكـم فى دنياكم ـ وإن لم تؤمنوا بالله ـ لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحـلال الطيب ، فالله لم يُحرِّم إلا كل ضَارٍّ ، ولم يُحلِّل إلا كل طيِّب .

هنا موقف يَقِفُه كـثير من الذين أسـرفوا على أنفـسهم ، ويحـبون أن تكون قضيـة الدين وقضية التـحريم وقضية التـحليل قضايا كاذبة ، لأنهم لا يـنجيهم أمام أنفـسهم إلا أن يجدوا أشـياء يُكذِّبون بهـا الدين ؛ لأنهم لم يستطيـعوا أن يحملوا أنفـسهم على مطلوبات الله ، فلـما لم يستطيـعوا ذلك لم يجـدوا مَنْفَذاً لهم إلا أنْ يقولوا : إن قضايا الدين كاذبة ، بما فيها التحليل و التحريم .

إنهم يقولون : ما دام الله قد حرَّم شيئاً ، فلماذا خلقه فى الكون ؟

كأنهم يعتـقدون أن كل مخلوق فى الأرض قد خُلِق ليـؤكل ، وما علموا أن لكل مـخلوق فى الأرض مـهـمـة ، فـهم الآن يُمـسِكون الحيَّـات والثـعـابين ليستخلصوا منها السموم ، حتى يقتلوا بها الميكروبات التى تقتل الإنسان.

وقد كانوا قبل اكتشاف فائدة السُّمِّ فى الثعابين يتساءلون :

وما فائدة خلق مثْل هذه الثعابين ؟

فلمـا أحوجـهم الله ، وألجـأهم إلى أن يستـفـيدوا بما فى الـثعـابين من سُمٍّ ، ليـجـعلـوه علاجـاً أدركوا حكمـة الله من خلق هـذه الأنواع ، لقد خلـقهـا لا لنأكلها ، وإنما لنعالج بها .

فأنت إذا رأيتَ شيئاً مُحَرَّماً لا تَقُلْ : لماذا خلقـه الله ؟ لأنك لا تعرف ما هى مهمته ، فليست مهمـة كل مخلوق أنْ يأكله الإنسان ، إنما لكلٍّ مخلوق مهمة ، قد لا تشعر بأدائها فى الكون .

وهذه مسألة نستعملها نحن فى ذوات أنفسنا ـ على سبيل المثال ـ عندما يأتى الصـيف ، ونخشى على مـلابسنا الصـوفيـة من الحشـرات ، فنأتى لها بما يقـتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونُحذِّر أبناءنا من الاقتراب منه وأَكْله .

إن « النفتالين » لا يُؤْكَل ، ولكنه مُفيد فى قتل الحشرات الضَّارة .

كذلك « الفنيك » نشتريه ، ونضعـه فى زجاجة فى المنزل لِنُطهِّر به أى مكان مُلوَّث ، ونحـذر الأطفال منه لأنه ضـار لهم ، ولكنه نافع فى تطهيـر المنزل من الحشرات.

وكذلـك المخلوقات التى لا نعـرف حكمة خَلْقـها ، لقـد خلقهـا الله لمهـمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئًا من مهمته إلى مهمة أخرى.

وإذا كان الإنسان لم يدرك حـتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكـثر ما يجهل ، وهو يكتشف كل يوم سِراً من أسرار مخلوقات الله.

وعلى سبيل المثال:

كانـوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتـجاوز حـجمـه عُقْلة الإصـبع ، ولا يكبر أبداً ، واحتاروا فى فائدته ، وعندمـا ذهبنا للسعودية ، ورأينا الأماكن التى

نأخذ منها الماء الذى قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، فسألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا:

إنه لا يكبر ويظل على هذا الحـجم ، ومهمـته تنقية الميـاه فى الأماكن التى لا يقوم الإنسان بتنقيتها.

وجرَّبنا حـقيقة مـا قالوا ، فألقـينا بعضًا من مُـخلَّفات الطعام ، فـوجدنا هذه الأسـماك تخـرج من حيث لا ندرى ، وتلقـف هذه البقـايا ، ولا تتركـها حـتى تُنهيها.

هكذا يخلق الحيُّ القيُّوم مـخلوقات لتحفظ مخلوقات أخـرى . هو سبحانه يقول للإنسان : لا تأكل هذا وكُلْ ذاك ، لحكمة قَدْ لا نعرفها.

مثال آخـر: الطائر المعروف بـ « أبى قردان » صـديق الفلاح . كانت وظيفـته فى الحيـاة أن يأكل الحشـرات والديدان عند رَىِّ الأرض ، ومنذ أن اختـفى هذا الطائر بتأثير المبيدات اسـتفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة دودة القطن ، إنها معادلة إلهية مركبة تركيبًا دقيقًا .

وكذلك الذباب ، يتساءل بعض الناس: ما حكمة وجوده فى الحياة؟

وهم لا يعـرفون أن الذباب يؤدى للإنسـان دورًا هامًا ، هو أكْل الـقاذورات وما بها من أمراض ، ولو تحصَّن الناس بالنظافة لما جاءهم الذباب.

إذن: فكُلُّ شـىء فى الوجـود مُـرتَّب ترتيبًـا دقـيقًـا ، إنه ترتيبُ خـالقٍ عليمٍ

حكيمٍ ، وما دام الحكيم هو الذى خـلق ، فلا يعترض أحـد ، ويقول : لماذا خلق كذا وكذا ؟ لأن لكل مخلوق دوراً يؤديه فى الكون.

ولذلك يُنبه الخالق الناس- مؤمنهم وكافرهم- بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكَافر: إنك إنْ تعقلتَ الأمـور لوجدتَ أن كُلَّ ما أمرتك به هو لصـالحك ، وحـتى لو لم تؤمن ، فـأنا أدلُّك على مـا ينفع ، فـلا تأكل إلا الحلال الطيّب ، وانظر إلى المؤمنين بماذا سُمِح لهم ، وكُلْ مثلهم .

وقـد أثبت الواقع والتـاريخ أن الكافـرين يلجـأون إلى منهـج الله فى بعض الأقـضيـة ؛ ليـحلُّوا مشـاكل حـياتهم ، لا بدين اللـه كدين ، ولكن بأوامـر الله كنظام ، فلو كان عنـد الكافرين بالله حكمة حـتى فيمـا يتعلق بشئـون دنياهم ، لأخذوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه.

والمثال على ذلك: عندما يُحرِّم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة[1]. أى : التى ماتت ولم تُذبح ، إن لحمها ضَارٌّ بالصحة ؛ لأن أوعية الدم فى الحيوان وفى كل كائن حَىٍّ هى وعاءان:

إما أوردة ، وإما شرايين . والـدم قبل أن يذهب إلى الكُلَى أو الرئة يكون دمًا

---

(١) يقـول تعـالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْـرِ اللَّـهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ ...﴿٣﴾** ﴾ (المائدة). ويقـول :﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ . . ﴿١٧٣﴾** ﴾ (البقرة) ويقول : ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾** ﴾ [الأنعام] ويقول: ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ..﴿١١٥﴾** ﴾ (النحل) ، فكلها بدأت ذكر المحرمات بذكر حرمة أكل الميتة.

فـاسداً ، ونحـن عندمـا نذبـح الحـيوان يسـيل منه الدم الفـاسـد وغيـر الفاسـد ويخرج ، ويصير اللحم خالصًـا ، لكن الحيوان الذى لم يذبح أى لم يُذَكَّ[1] ، يعنى لم يَطْهُر من فساد الدم ، وهو ضَارٌّ للإنسان.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول ﴿يا أيها الناس﴾ فكأنه يدعو غير المؤمنين: لو عقلتم ، لَوجَب أن تحتاطوا لحياتكم بألاَّ تأكلوا إلا حلالاً أحلَّه الله للمؤمنين.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ... ﴿٤﴾ ﴾ (المائدة)

أى: أن كل طيِّب قد حَلَّـله الله ، وكل خبيث حـرمه الله ، فـلا تقولن : هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حرامًا.

ولكن قُلْ: هذا حـلال فيجـب أن يكون طيبًـا ، وهذا حرام فيـجب أن يكون خبيثًا.

وإياك أن تحكم أولاً بأن هذا طيِّب وهذا خبيـث ، ثم تبنى على ذلك التحريم والتحـليل، فأنت لا تعـرف مثلمـا يعرف خـالقك عن كيـفية وجـدوى ترتيب الأشيـاء بالنسبة لك ، حتى لا تقعَ في دائـرة الذين يستطيبون المسـائل الضارة ، كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم.

---

(١) الذكاة والتذكـية: الذبح والنحر. ومعنى التذكـية: أن تدركها وفيـها بقية تشخب مـعها (أى: تسـيل دمًـا) الأوداج (هى العـروق التى تحـيط بالعنـق). وأصل الذكـاة فى اللغـة كلهـا: إتمام الشىء. [لسان العرب- مادة: ذكا].

بل يجب أن تحرص على فَهْم مـا أحل الله فستراه طيبًـا وترفض ما حرَّم الله لأنه خـبيـث ، فلا تظن أبدًا أن كـل طيب ظاهريًا مُـحلَّل لك ؛ لأن هذا الشيء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثًا.

وعليك أن تترك تحديد الطيِّب والخبيث لخالقك ، فهو أدْرَى بك وبالمناسب لك.

أما أنت فتعرف الشيء الطيب من تحليل الله له ، وتعرف الخبيث من تحريم الله له ، والحـكم هنا يكون للـتكليف ، فـالله هو الذى خلق ، والـله هو الذى يعلم الصالح للإنسان.

فالمسألة إذن ليست العناصر، ولكنهـا إرادة الخالق لتلك العناصر ، فهو الذى قدَّر فهدى.

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى:

أن الحق سبحانه أحلَّ للمؤمنين الطيبات ، وكلُّ شيء أحله الله يكون طيبًا ، وكلُّ شيء حرَّمه الله يكون خبيثًا.

فلا تنظر إلى الآراء البـشرية التى يقول بعضهـا على شيء : إنه طيب فيكون حـلالاً ، وإن ذلك الشيء خبـيث فيكون حـرامًا ، فـأنت وغيـرك من البشـر لا يعرفون ترتيب الأشياء ، ولا فائدتها ، ولا مَضرَّتها بالنسبة لك .

والدليل : أن البـشر يتـدخلون فى بعض الأحـيان فى تحـريم أشيـاء بالنسبـة لبعـضهم البـعض ، فنجد الطبـيب يقول للمـريض: أنت مريض بالسـكر ، فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات.

فإذا كنـا نسمع كلام الـطبيب ، وهو من البـشر ، أفلا يـجدر بنا أن نسـتحى ونستمع لأمر الخالق؟

بل إننا نتجاسر ونسأل: لماذا حرَّمْتَ علينا يا رب الشىء الفُلانى؟

وقد يُخطئ الطبـيب ، لكن الله لا يمكن أن يخطئ ، فهـو ربنا المأمون علينا ، فما أحلَّه الله يكون الطيِّب ، وما حرمه يكون الخبيث.

وهذه قـضية يتـعرض لهـا أُنَاس كثـيرون . فـعلى سبـيل المثال: نسـمع مَنْ يستشهد الاستشهاد الخاطئ وفى غـير مَوْضِعه ، بقول الحقِّ سبحانه: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**[1] ... ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة) ويقول: إن عملى يأخذ كل وقتى ، ولا فُسْحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يُكلِّفنا إلا ما فى الوُسْع.

ونقول: وهل أنت تَقْدُر الوُسْع وتبنى التكليف عليه؟

لا. عليك أن تسـأل نفـسك: أكلَّفـك الله بالصـلاة أم لا؟ فـإذا كـان الحق سبـحانه قد كلفك بالـصلاة وغيرهـا من أركان الإسلام ، فـهو الذى علم وُسْع الإنسان فى العمل ، ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتـعرف طاقة الوُسْع من بعد ذلك.

وكذلك اسأل نفسك عَمَّا حَلَّله الله ، واعـرف أنه طيِّب ، وما حرمه الله فهو خبيث.

---

(١) الوُسْع: طاقة المرء وجـهده. قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٤٢): «أى: لا يكـلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم».

وإذا سألنا : ما تلك الطيبات؟

عرفنا أنها غير ما حرَّم الله ، فكل غير مُحرَّم طيب.

والحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

فالحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ، ويعطيك وَقُوداً لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تُعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تُعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها.

كذلك جعل الله سبحانه تلك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها ، وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حلله الله لك، وكذلك حرّم الله عليك مَا يضرك .

إياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرُّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقًا بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل ما فى الكون هو رزق.

ومثال ذلك: النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام.

إذن: فهناك شىء مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك.

والحق سبحانه قد حلّل لك- على سبيل المثال- لحم الضأن والماعز، والإبل والبقر وغيرها ، وحرّم عليك لحم الخنزير، فلا تسأل: لماذا خلق الله الخنزير؛ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يُلَمْلِم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها.

وبعض الناس قـد حرَّم عـلى نفسـه أشـياء حللهـا الله تعـالى ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يُحلِّل ما حرّم الله أنه يُوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ... ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

أى: أخبـرونى ما أنزل الـله لكم من رزق ، وهو كل مـا تنتـفعـون به ، إمـا مباشـرة ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتـحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال والحرام؟!

وما دام الحق سـبحـانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحـرام ، فلماذا تُدخِلون أنوفكم فى الحـلال والحرام ، وتجـعلون بعض الحلال حـرامًا ، وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام ـ حلالاً؟

لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خلق ، وهو سبحانه أَدْرَى بمصلحتكم؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

أى: هل أعطاكم الله سـبحـانه تفـويضًا فى جَـعْل الحلال حـرامًا ، والحـرام حلالاً؟

وهذا تعدٍّ مـا كان يجب أن يقتـرفوه ؛ لأن الحق سـبحانه هو خـالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفى هذا كذب مُتعمَّد على الله سبحانه.

إن كل فساد ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقًا لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له ، والحق سبحـانه وتعالى يبلغنا أنه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يُـقيتــه ، وما يحفـظ نوعـه ، فعلينا أن نتـبع ما يأمـر به الحقُّ من اتِّباع مـا هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام.

وإنْ قال قائل: ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التى خلقها ؟

نقول: إن الذى خلقها جعلها لمهمة غـير المهمة التى يريد الإنسان أن يُوجِّهها له. ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير.

والإنسان منَّا إذا مـا رأى صورة من معـيشة الحـيوانات فى الغابة يتـعجب ، ففضلات حيوان هى غذاء لحيوان آخر، وسُمُّ الثعبان هو حماية وعلاج.

ونعرف أن الإنسـان يستـخلص سُمَّ الثعبان ليسـتخـرج منه علاجًـا لبعض الأمراض ، ولقتْل بعض الجراثيم.

ولذلك يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مُشرّعين ، نحلل الحرام ونحرم الحلال؟

إن الله الذى خلق كل شىء لم يمنحنا الإذن بذلك ، وعلينا أن نُسلِّم بأن كل شىء مخلوق لمهمة ، فلا يصحُّ أن نوجه شيئًا إلى غير مهمته.

وتوجيه أشياء إلى غير ما جُعِلتْ له أنتج آثارًا ضارة.

ومثال ذلك: استخدامنا لمبيـدات الحشرات فى الحقول، تلك المبيدات أبادتْ الضارَّ فى نظرنا ، وأبادتْ النافع أيضًا.

وعلى الإنسان ـ إذن ـ أن ينتـبه جيدًا ، فلا يسـاوى بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تمامًا فلا يتعدَّى الجَعْل المخلوق لله.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(المائدة)

حين يقول سـبحانه ذلك ، فـالمقصود به أن يأكل الإنسـان من الرزق الحلال الطيب.

إذن: فهناك رزق حرام . مثال ذلك : اللص الذى يسـرق شيئًا ينتفع به ، هذا رزق جاء عـن طريق حرام ، ولو صـبر لجـاءته اللُّقْمـة تسعى إلى فـمه ؛ لأنـها رزقه.

أو : الرزق هو ما أحلَّه الله.

وهنا اخـتلف العـلمـاء ، وتسـاءل البـعض : هل الرزق هو الحـلال فـقط ، والباقى ليس رزقًا ؟

وتساءل البـعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ، ومنه مـا يكون حلالاً ، ومنه ما يكون حرامًا ؟

فأمر التحليل والتحريم موكـول إلى خالق الآلة الإنسانية ، إياك أيها الإنسان أن تُحرِّم ما أحلَّ الله لك ، وإياك أن تُحلِّل ما حرَّم الله عليك.

إذن: فلا اعتـقاد فى شىء حلال أنه حرام ، ولا قَـوْل بمثل ذلك ، ولا امتناع عنه ، ولا يُفتى إنسان بمثل ذلك.

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (المائدة)

ونحن نعرف أن الاعتـداء إنما هو أن نتجاوز الحدَّ فـيما حرَّم أو فـيما حَلَّل ، والحق سـبحـانه يحب مَنْ يقف عند حـدود الله ، فلا يـقربهـا الإنسان حـتى لا تحدِّثه نفسه بمعصية ، وعندما يبتعد المسلم عنها فهو يتقى الشبهات.

والحق سبحانه يبين لنا أنه قد أحل لـنا كذا ، وحرم علينا كذا ، وهو الخالق ، فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يُبقى لنا الحياة.

هذا الإبقـاء هو مـا نصنعه نـحن ، حينمـا نختـرع آلة تُوفِّر علينـا الحركـة ، وتعطينا الثمرة بأقـل مجهود . فحين يصنع الصـانع آلة من الآلات يصنع لها ما يُوجِد لها الطاقـة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل لهذه الآلة أن يُغيِّر وقود هذه الطاقـة ، فإن غيَّـر نوع الطاقة ، فـالآلة لا تؤدى مهـمتـها ، فمـا بالنا بالذى خلق؟

إنه حين يُوضِّح أن هـذه الآلة لا تصلح إلا بما أحللـت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرَّمت عليك.

هنا يجب أن نطيع الخالق ؛ لأنه هو الذى يعلم مـا يصلح لنا وما لا يصلح ، ولم يَدَّعِ أحد فـى الكون أنه خلق نفسـه ، فَلْنَرُدّ اقتـياتنا [1] وحفظ حـياتنا إلى خالقنا ، ولنأخذ ما حلله ونبعد عَمَّا حرمه.

فالآلة ـ الإنسان ـ تصلح بأن تفعل الحلال ، وأن تترك فِعْل الحرام.

إذن: هناك أشياء تُفـعل ، وهناك أشياء لا تُفعل ، وهناك أشياء لم يـأت فيها الحِلُّ أو الحرمـة ، فإن أقبل عليهـا الإنسان تصلح ، وإن لم يقبل عليهـا الإنسان فهى تصلح أيضًا . وهو سبحانه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ (البقرة)

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ (البقرة)

ففى المنهيات : لا تقترب . وفيما أحله الله : لا تتعدَّ .

لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم ﷺ :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ[2] لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى المشتبهات وقع فى الحرام ، كراعٍ يرعى

---

(١) القوت: ما يمسك الرمق من الرزق. والاقتيات والقوت، واحد. وهو فى قائت من العيش أى فى كفاية. والمقصود به ما دون الكماليات ، أى : ما يحفظ الحياة على الإنسان.

(٢) الاستبراء : الاستنقاء والبراءة . قال النووى فى شرح مسلم (١١/ ٣١) : « أى : حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعى ، وصان عرضه عن كلام الناس فيه » .

حول الحمَى(١) يُوشك أنْ يُواقعه، ألا وإن لكل ملك حمىً ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه، ألاَ وإن فى الجسد مُضْغة(٢) إذا صلُحَتْ صلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألاَ وَهى القلب»(٣).

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية إذا حُرِم عليها شىء ولم تَحُمْ حوله كان ذلك أدْعى ألاَّ تفعله، فالله تعالى حين حَرَّم الخمر مثلاً لم يَقُل حرمتُ عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا فى مجالس الخمر مع الذين يشربونها، أو نتاجر فيها.

وهذا كله إغراء بشرب الخمر، ولكن الحق سبحانه قال فى شأن الخمر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ(٤) وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ (المائدة)

---

(١) الحمَى: موضع فيه كلأ يُحمى من الناس أن يُرعى. [لسان العرب - مادة: حمى]. قال النووى: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس، ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفًا من الوقوع فيه، ولله تعالى أيضًا حمى، وهى محارمه، أى: المعاصى التى حرمها الله، كالقتل والزنا والسرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حمى الله تعالى، من دخله بارتكابه شيئًا من المعاصى استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه، ولا يتعلق بشىء يقربه من المعصية، فلا يدخل فى شىء من الشبهات» [شرح النووى على صحيح مسلم ١١ / ٣٢].

(٢) المضغة: القطعة من اللحم. وقلب الإنسان مضغة من جسده [لسان العرب - مادة: مضغ].

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٩٩)، والبخارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان ابن بشير رضى الله عنه.

(٤) الأنصاب: جمع نُصُب، وهو ما يُنصب ليعبد من دون الله، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه، أو إلى الأصنام، وكان حول الكعبة «أنصاب» يعبدونها ويذبحون عندها الذبائح.
والأزلام: جمع زَلَم، وهو قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها. وقد كانت لقريش فى الجاهلية مكتوب عليها أمر ونَهْى، وافعل ولا تفعل، قد زُلِّمتْ وسُوِّيتْ ووضعت فى الكعبة للاقتراع بها، فإن خرجت بالفعل فعل، وإن خرجت بعدم الفعل لم يفعل، وكان يتولاها سدنة البيت.

هذا النصُّ الكريم قد جعلنا نبتعد عن الأمـاكن التى فيها الخمور ، فلا نجلس مع مَنْ يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع فى المعصية .

فإذا رأيتَ مكانًا فيه خمر فابتـعد عنه فى الحال ، حتى لا يُغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله .

والحق جل جلاله يقول فى المحرمات : لا تقربوا ، واجتنبوا .

أى : لا تحومـوا حولها ؛ لأنهـا إذا كانت غائبة عنـك فلا تخطر على بالك ، فلا تقع فيها .

ومثال هذا أيضًا قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ (١) فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (البقرة)

فلا تجـعل امرأتك تأتيك وأنت فى مُـعْتَكَفِك ، فقـد تكون جميلة ، صـحيح أنك لا تنوى أنْ تفعل أىَّ شىء ، لكن عليك ألاَّ تقربَ أسباب النواهى .

إذن : فَلِكَىْ تمنع نفسك من تلك المحرَّمـات فعليك ألاَّ تقرب النواهى ، وفى الأوامر عليك ألاَّ تتعداها .

---

(١) العكوف : الإقـامة فى المسـجـد . ويقال لمن لازم المسجد وأقـام على العـبادة فـيه : عـاكف ومعتكف . والاعتكاف والعكوف : الإقامة علـى الشىء وبالمكان ولزومهما . [لسان العرب ـ مادة : عكف] .

فالحق سبحانه يريد أنْ يمنع تأثير المحرمات على النفس ، التى تُلِحّ عليها أن تفعل ، فإنْ كنتَ بعيدًا عنها ، فالأفضل أنْ تظل بعيدًا .

والله تعالى يقول :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

(الأنعام)

وهذا نَهْى عن القُـرْب ، أى نَهْىٌ عن الملابسات التى قد تـؤدى إلى الفعل ، لا نَهْى عن الفعل فقط ، فحينما أراد الله أنْ يُحرِّم على آدم وعلى زَوْجه الشجرة قال :

﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ (الأعراف)

لأن القُرْب قد يُغرى بالأكل ، وكـذلك (لا تقربوا الفواحش) . أى : لا تأتى إلى مُقَدِّمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدّق النظر إلى مُحرَّمات غيرك .

وكذلك المرأة التى تتبرج [1] ، إنها تقوم بالإقبال عـلى مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدِّمات أمنت الفتنة والزَّلَل .

وحين ينهـانا الحق سـبحـانه عن الاقـتراب من شىء ، فـهذه هـى استـقامـة الاحتياط.

(١) التبرج : إظهار الزينة ، وما يُستدعى به شهوة الرجل . لسان العرب ـ مادة : برج .

وهى قد تسمح لك بأن تُدخِل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها ، أى : الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر ، حتى لا يجتمع المسلم مع الخمر فى مكان .

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ، استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة .

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه مِنَّا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأنْ نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام ، يكفيك أنْ تكون جهتُك الكعبة .

أما حين تصلى فى المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان : قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم» [1] ، وهو جزء من الكعبة لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ، فلم يبنوه [2] .

---

(١) الحطيم : الجدار . وهو هنا جدار الكعبة . قال الأزهرى : الذى فيه المزراب ، وإنما سمى حطيمًا لأن البيت رُفع ، وترك ذلك محطومًا . [لسان العرب ـ مادة : حطم] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) : أمن البيت هو ؟ قال : نعم . قلت : فلم لم يدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة . قلت : فما شأن بابه مرتفعًا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ، ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٣٣ ـ رواية رقم ١٠) .

لذلك فـأنت تتجـه ببـصرك إلى البناء الـعالى المقطوع بكـعبـيتـه . وهذا هو الاحتياط بالنقص .

أما الاحتيـاط بالزيادة ، فمثال ذلك : هو الطواف ، وقد يزدحم البـشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد .

وهكذا يطول عـليك الطواف ، لكنه طـوافٌ بالزيادة ، فـعند الـصـلاة يكون الاحتياط بالنقص ، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة .

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة .

والحديث الشريف يوضح المسألة ، فيقول النبى ﷺ :

«مَنْ حَامَ حول الحِمَى أوشك أنْ يُواقِعه»

فالمحرَّم ابتعدْ عنه نهائيًا .

والحلال لا تتعدَّه ، وتوقَّف عند آخره .

وقد تكون هناك مـسائل يختلف فيـها الفقهاء ، ولذلك سنـفترض أن الذين يقولون بالحِلِّ مساوون للذين يقولون بالحرمة .

ماذا قال المشرِّع فيما إذا كان هناك أناس يُحِلون ، وأناس يُحرِّمون ؟

الحديث قال : «فمن ترك الشبهات» ، ولم يَقُلْ : «فمَن فعل الشبهات» .

فالأصل هو تَرْك ما فـيه شبهة حـرام ، ومَنْ ترك ما شُبِّه له اسـتبرأ لدينه ـ إن كان متدينًا ـ ولِعِرْضه [1] إن لم يكن متدينًا .

---

(١) قال ابن الأثير : العرض موضع المدح والذم من الإنسان ، سواء كان فى نفسه أو سلفه أو مَنْ يلزمه أمره . [نقله ابن منظور فى اللسان ـ مادة : عرض] .

قد يكون الإنسان مُلْحِدًا وغير مؤمن ، نقول له : استبرئ لِعِرْضك .

فكُلُّ مَنْ لا يترك ما تشـابه عليه من الحلال والحرام فهو لم يسـتبرئ لا لدينه ولا لِعِرْضه (١) .

إن التشريع يسمح لك ـ على سبيل امثال ـ أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مـالكَ له ، كنبات الأرض غـير المملوك لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكلَ لا بُدَّ أنْ تنظر فى الطعام ، لتعرف : هل هو مِمّا أحلَّ الله أم لا ؟

والتشريـع لا يسمح لك أنْ تأكلَ من نبات الأرض المملوك لغيـرك ، ويُحرِّم عليك أنْ تصطاد حيوانات مملوكةً لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد الذى تحرك به مالك الأرض ليزرع النباتَ أو ليُربى الحيوان .

فَـلاَ تَقُلْ : إن ذلـك النبـات فى الأرض وأنا آكُل منـه ، أو أن ذلك حـيـوانٌ موجودٌ أمامى وأنا اصْطدته.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) ﴾ (البقرة)

لماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟

لأن عداوته للإنسـان عداوة مُسْبقـة ، وقف من آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يُغويكم جميعًا.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أى : أن الشيطان لم يفاجئنا .

---

(١) يرجع لكشف الشبهات عن المشتبهات للشوكـانى ، ففيه تفصيل مهم لشرح حديث « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ».

وإنمـا وضع الحـق أمـامنا قـصة الـشيطان مـع آدم واضحـة جليـة ليـعطينا المناعـة، بدليل أنـنا حين نريد أن نصون أجسامـنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتى المرض ، فنُطعِّم أنفسنا ضد شلل الأطفـال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا.

فكأن الله سبـحانه وتعـالى يذكـر قـصة الشـيطان مع أبينا آدم لـيقـول لنا ؛ لاحظوا أن عداوته مُسْبقة .

وما دام له معكم عداوة مُسْبقة فلن يأخذكم على غِرّة ، لأن اللهنبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول .

والشيطان عندما يُذكر فى القـرآن يُراد به مرّة عاصى الجن ؛ لأن طائع الجن مثل طائع البشر تمامًا ، ومرّة يريد به شياطين الإنس .

إذن : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .(١)

وحتى تستطيع أن تُفرِّق بين ما يُزيِّنه الشيطان، وبين ما تُزيِّنه لك نفسك ، فإن رأيتَ نفسك مُـصِراً على معصـية من لون واحد فاعلم أن السـبب هو نفسك ؛ لأن النفس تريدك عاصيًا من لون يُشبع نقصًا فيها ، فهى تُصِرّ عليه .

ـ إنسان يحب المال ، فتتسلط عليه نفسه من جهة المال .

---

(١) يقول تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..... ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ١٦٧) : «شيطان كل شىء مارده »

وقد أخـرج الإمام أحـمد فـى مسنده (٥/ ١٧٨ ، ٢٦٥) عن أبى ذر قـال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسـجد فجلست فـقال : يا أبا ذر هل صليت ؟ قلت : لا . قال : قم فـصل . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن . قال : قلت: يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟قال : نعم ».

ـ وإنسان آخر يحب الجنس ، فتتسلط عليه نفسه من جهة النساء .

ـ وثالث يحب الفخر والمديح ، فتتسلط عليه نفسُه من جهة مَنْ ينافقه .

لكن الشيطان لا يُصرّ على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعتَ عن معصية ، فهو يُزيِّن لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصيًا على أية جهة .

فالشيطان هو الذى يُوسوس [1] للإنسان بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة ، فإذا ما كانت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرَّأهما على المخالفة ، فخرجا من الجنة . كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

فالحق سبحانه يُحذِّر الناس جميعًا من اتباع خطوات الشيطان ، بل إنه سبحانه يُحذِّر الذين آمنوا فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[2] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور]

كأن الشيطان له خُطُوات متعددة ، وليس خُطْوة واحدة ؛ لأن الشيطان ـ كما علَّمنا ـ أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسبَّبة ، وليستْ كلامًا نظريًا .

---

(١) الوسوسة والوَسْواس : الصوت الخفىّ ، وهو أيضًا صوت الحَلْى . ويُقال لهَمْس الصائد والكلاب : وسواس . والوسواس : الشيطان ، وقد وسوس فى صدره ووسوس إليه . [لسان العرب ـ مادة : وسوس] .

(٢) زكا: طَهُر وصلح، فهو زَكىٌّ، وهى زكية. قال تعالى: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] طاهرًا صالحًا. والزكاة: الطهارة وصفوة الشىء.

فلم يَقُل لنا الحق سبحانه : إن الشيطان عدو لكم ، دون أنْ يذكر لنا السبب أو الواقعة ، ولكنه سبـحانه أكَّد عداوة الشيطان لنا بواقعة ثابتـة ، فقد امتنع عن السجود لأبينا آدم ، وأبدَى ما في نفسه من حقد عليه حين قال :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ... (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقال أيضًا:

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

فلم يَكْتَفِ إبليس بالامـتناع عن السجـود فقط ، ولكنه امتنع وعـلَّل الامتناع بأنه أفضل من آدم ، فهذه عداوة حَسَدٍ لمركز آدم عليه السلام.

الله سبحانـه كان يُمكنه أن يكتفي بإخبارنا أن هناك شيطانًـا سيُوسْوِس لكم وهو عـدو لكم ، ولكنه سبـحانه أكـد ذلك بحـادثة، وبيَّن أنها عـداوة واضحـة ومُسبَّبة.

وما دام الـشيطان عَـدُو لك ، فلا بُدَّ أيهـا الإنسان أن تتنبـه ، فالله عـمل لك حادثة الامتنـاع عن السجود لآدم حتى يُربِّي فـيك مناعة من الشيطان ، فتـتذكر عداوته ، ولا تتبع خُطواته أبدًا ، بدليل أنه تربَّص[1] ببني آدم.

قال تعالى:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[2] ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

---

(١) ربص بالشيء: انتـظر به شـرًا أو خيـرًا يحلّ بـه ، والتربُّـص:الانتظار. قـال الليث: التـربص بالشيء أن تنتظر به يومًا ما. [لسان العرب ـ مادة : ربص] .

(٢) أحتنكن: مـأخوذ من احتنك الجراد الأرض إذا أتى على نبـتها. قال الأخفش: لأسـتأصلنهم ولأستميلنهم. واحتنك فلان ما عند فلان أي أخذه كله. [لسان العرب ـ مادة :حنك] .

وقال:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

إذن: المسألة عداوة مُركَّزَة ومرْسُومة ، وضع الشيطان لها منهجًا ، ولم يتركها هكذا ، فعرف كيف يُقسِم .

فالشيطان يدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خلقه ؛ لأن الله لو أرادنا جميعًا مؤمنين ما استطاع الشيطان أن يقربَ واحدًا منَّا.

لكن الله خلقنا مختارين ، فدخل لنا الشيطان من هذا الجانب ، ولكن الشيطان تدارك قوله ، وعرف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا لم يُرِدْهُ الله ، فهو قال:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

ثم تراجع وقال:

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

أى : أن الذى تختاره يارب لا أستطيع أن أقرب منه.

إذن: المسألة ليست بين الله وبين إبليس ، ولكنها بين إبليس وبنى آدم ، لذلك يحذرنا الحق سبحانه من اتخاذه وذريته أولياء من دون الله ؛ لأنهم أعداء لنا جميعًا.

فيا مَنْ آمنوا تنبَّهوا إلى شرف إيمانكم بالله ، وابتعدوا عن الذى يُضعِف هذا الإيمان أو يَفُتُّ[1] فى عضد المؤمنين بأىِّ وسيلة.

(١) كلَّمه بشىء ففتَّ فى ساعده. أى: أضعفه وأوهنه. ويُقال : فتَّ فلان فى عَضُدى ، وهَدَّ ركنى. [لسان العرب ـ مادة : فتت] .

ولتتأكدوا أن الشيطان له خطوات يستدرجكم بهـا إلى المعصية ، فالشيطان يحب أن يكون ابنُ آدم عاصـيًا ، فإذا جـاءه من جـهة ووسوس له ليـعصى الله فيـها ، ووجد عنده صلابة فى هـذه الناحية لا يتركـه ، ولكن ينقله إلى معصـية أخرى، فهـو ليس له خطوة واحدة كأنْ يوسوس لك بفعل كـذا ، فإنْ لم تفعل يتركك.

لا ، ولكن إن وجـدك ممـتنعًا عنه فى مـعـصيـة ، ولـم يقدر عليك فـيهـا لا يتركك ، وإنما ينتقل بك إلى معصية أخرى ، وكأن لكل إنسان نقطةَ ضعف فى تكوينه ، فيظل الشيطان يحاول معه حتى يصل إلى نقطة ضعفه.

والحق سبحانه يخبرنا عن مراد الشيطان من الإنسان ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

[البقرة]

والسوء هو كل عـمل أضرَّ فـاعله بالآخرين ، وهو غيـر الذى يرتكب شيـئًا يضرُّ به نفسـه فقط ، فالذى سرق أو قـتل أو اعتدى على آخر قَـذْفًا أو ضَربًا أو إهانة ، فهذا فاعل للسوء.

فـمثـل هذه الأعمـال هى ارتكابٌ للسـوء ، فـالسـوء عـمل يكرهه الناس ، ويُقال: فلان رَجُلُ سوءٍ ، أى : يَلْقى الناس بما يكرهون.

أما الذى يشـرب الخمر فـقد يكون فى عزلة عن الـناس ، لم يرتكب إساءة إلى أحد ، لكنه ظلم نفسه.

فإنْ صنع الإنسـان سُوءًا ـ أى: أضرَّ بغـيره ـ فهذا اسـمه «سوء» ، أمـا حين يصنع فعلاً يضرُّ نفسه ، فهذا ظلم النفس.

والفحشاء هى كل ذنب فيه حَدٌّ ، وفيه عقوبة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** .. (٩٠) ﴾ [النحل]

وقد قـلنا : إن القرآن الكريم نَصَّ فى أمـر الزنا بأنه كان فـاحشـة ، وهذا هو الذنب الوحيد الذى سماه فاحشة.

ولكن العلماء حين تكلَّموا عن الفاحشة قالوا: هى الذنب العظيم الذى يبلغ من مرتكبه أنه يسـتره عن الناس حتى لا يراه أحد ، كأنه هو نفسـه حين يصنعه يعلم أنه لا يصح أنْ يتجاهَر به.

أما المنكر فهو الأمر الذى اجترأ أنْ يصنعه ، ولكن المجتمع يستنكره.

فهناك مرتبتان:

الأولى: هى الفحشاء ، وهى ما ستره الإنسان فى نفسه من الآثام ، فصاحب الإثم يتحرَّج أنْ يعرفه المجتمع ، فيستره.

الثانية: هى المنكر ، وهو ما تعالم به وأنكره المجتمع.

والشيطان يأمر بالسـوء والفحشاء والمنكر ، فهو يريد الإنسـان عاصيًا على

أىٍّ وجه كان ، فالشيطان يأتى للإنسـان ويُزيِّن له طريق الباطل ، فهو يدخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليُوقِع أبناء آدمَ فى المعصية.

ولو أن أبناء آدم حكَّموا عقـولهم ، وهم يعرفون أن هناك عداوة مُسْبَقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يُبـقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية[1] .

لو تنبَّهنا إلى ذلـك لأخذنا حذرنا ، وعندمـا تنكشف وسوسة الشـيطان فإنه يهرب.

فـإبليس يدخل إلى ناحـيـة الغـواية بأن أقـسم بعـزة الله ، وأن الله عـزيز لا يحتاج لخلقه ، ولا يضره سبحـانه وتعالى مَنْ كفر ، ولا يزيد شيئًا فى ملكه مَنْ آمن.

فاستغل الشيطان عزة الله فى استغنائه عن خلقه ، فقال كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ[2] لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

والقرآن يشرح لنا كيف يُغوى إبليسُ بنى آدم ، فيقول:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال تعالى عن إبليس أنه قال : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف]

(٢) العـزة: الرفـعة والامـتناع. والعـزة : الشـدة والقوة. وقـوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ..(٨) ﴾ [المنافقون] . أى: له العِزَّة والغَلَبة سبحانه. [لسان العرب ـ مادة : عزز]

أى : أن إبليس لا يجتهد فى إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف ما أمر اللـه به ، فالنفس الأمَّارة بالسوء لهـا شيطانها ، وهى ليست بـحاجة إلى إغواء ؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الخـمَّارات وبيوت الدعارة ، ويبـذل جهداً فى إغـواء مَنْ يجلسـون فـيـهـا ؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هـذه الأمـاكن هو من شياطين الإنس.

ولكن إبليس يذهب إلى مهـابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبـذل معهم كل جَهْـده ، وكل حِيلَه ليصرفهم عن عبادة اللـه ، ولذلك لابُدَّ أنْ نتنبه إلى أن إبليس لم يَقُلْ : لأقعدنّ لهم على الطريق المعوج .

فالطريق المـعوج بطبيـعته يتـبع الشيطان ، فإبليس يـريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغرِيهم بالمال الحرام.

يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

هذه هى جهات الغواية[1] التى يأتى منها إبليس.

(من بين أيديهم) . أى : من أمامهم ، وهذه هى الجهة الأولى.

(ومن خلفهم) . أى : من ورائهم ، وهذه هى الجهة الثانية .

(وعن أيمانهم) . أى : من اليمين ، وهذه هى الجهة الثالثة.

---

(١) أغـواه: أضله وأوقـعـه فى الغى والضـلال. قـال تعـالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا. وغَوَى بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل.

(وعن شمائلهم). أى : من الشمال ، وهذه هى الجهة الرابعة.

وكلنا نعلم أن الجـهات سِتٌّ ، وليست أربعًـا ، فما همـا الجهتـان اللتان لا يأتى منهما الشيطان ؟

هما (فـوق ، وتحت) ، هرب إبليس من هاتين الجـهتـين بالذات ، ولم يَقُلْ سآتى لهم من فـوقهم أو من تحتـهم ؛ لأنه يعلم أن الجهة العليـا تمثل الفوقـية الإلهية ، وأن الجهة السُّفلى تمثل العبودية البشرية ، حينما يسجد الإنسان لله ، ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتين تمامًا.

ومن العجيب أنك إذا نظرتَ إلى أبواق الإلحـاد فى كل عصر ، تجدها تأتى من الجهات التى يأتى منها الشيطان.

يقولون «تقـدمى» جهة الأمام ، ويقـولون «رجعى» جهـة الخلف ، ويقولون «يمينى» جهة اليمين ، ويقولون «يسارى» جهة اليسار.

نقول لهم: نحن لَسْنا فى أىِّ جهة من هذه الجهات:

لا تقدميين .. ندعو إلى التحلُّل والفجور.

لا رجعيين .. نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا.

لا يساريين.. نُنكر الدين ونُناصر الكفر.

لا يمينيين ..نؤمن بالرأسمالية واستغلال الإنسان.

ولكننا أمة مـحمدية فوقـية ، كل أمورنا من الله ، ومـا دامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى ، فنحن لا نخضع لمسَاوٍ لنا ، ولكننا نخضع لله العلى القدير ، وما دُمْتَ تخضع لأعلى منك ، فلا ذِلَّة أبدًا ، بل عِزّة ورِفْعة.

نحن أمـة محـمدية فـوقيـة ، نعـلن عبـوديتنا وخـضوعنا لله ، ونتـبع منهج السمـاء ، ولذلك فقـد تميـزنا عن البشر جـميـعًا ؛ لأن كل إنسان فـى الدنيا لا يخضع لله سـبحانه وتعالى ولا يأخذ منـهجه عنه ، فهو خـاضع لمنهج بشرى وضعه مُسَاوٍ له من البشر.

والنفس البشـرية لها هَوىً تريد أن تُحـقِّقه ؛ لذلك فـهى تضع المنهج الذى يُمكِّنها من أنْ تتميز به على الناس ، المنهج الذى تستفيد منه هى وحدها .

وقد يكون المنهج من وضع مجـموعة أفراد أو طبقـة.. نقول : إن مناهجهم لفائدتهم ، ولكن اللـه سبحانه وتعـالى يضع منهجه ليـعطيك خيرًا ، لا ليـأخذ منك الخير ، لأنه جَلَّ جلاله مصدرُ الخير كله ، وهو ليس محتاجًا لما تملك ، ولا ما يملك كل البشر.

إذن : العدل والـخير والعـزة هى منهج السمـاء ، فالله لا يأخـذ منك ولكن يعطيك ، ولا يُذلك ولكن يُعزك.

فالشيطان لا يأتى للإنسان من فوق ومن تحت ؛ لأن الفـوقية هى الجهة التى يلجأ إليها العبد مُسْتغيثًا ومُسْتجيراً بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة.

فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد[1]، فهو فى الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول :

---

(١) عن أبى هريـرة رضى الله عنه أن رسـول الـله ﷺ قـال : «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) ، وأحمد فى مسنده (٢ / ٤٢١) ، وأبو داود فى سننه (٨٧٥) . =

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر]

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ [الأعراف]

فالشيطان يأتى من اليمين لِيُزهِّد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم لِيُغريهم بشهوات المعصية.

وإبليس لا يذهب إلى الخمَّارة لِيُغوى مَنْ فيها ، فمَنْ فيها اختاروا السلوك السيء ، ولذلك فَهُمْ لا يحتاجون إلى شيطان ، لأنهم هم أنفسهم شياطين.

= قال أبو حامد الغزالى فى الإحياء (الجزء الأول) : «السجود هو أعلى درجات الاستكانة ، فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب ، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل .

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خُلقْتَ وإليه تعود ، فعند هذا جدِّد على قلبك عظمة الله ، وقل «سبحان ربى الأعلى» ، وأكدّه بالتكرار ، فإن الكرَّة الواحدة ضعيفة الأثر.

فإذا رَقَّ قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله ، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر ، فارفع رأسك مُكبرًا وسائلاً حاجتك ، ثم أكِّد التواضع بالتكرار فَعُدْ إلى السجود ثانيًا ».

لكن الشـيطان يقف علـى باب المـسجـد ليـرى الناس وهى تفـعل الخـيـر فـيـوسـوس لهم ، وفى هذا إجـابة لمن يقـولون : إن الوسـاوس تأتـينى لحظة الصلاة.

والصلاة ـ كما نعلم ـ هى أشرفُ موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يَدَىْ الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أنْ يُلهِىَ الإنسانَ عنها حتى يحبس عنه الثواب.

وهذه الوسـاوس ظاهرة صحـية فى الإيمـان ، ولكنها تحـتاج إلى اليـقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة ، فليتذكر قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ(١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وعندما نسـتعيذ بالله من الشـيطان يعرف الشيطان أنك مُنْتبـه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة(٢).

---

(١) نَزْغُ الشيطان:وساوسه ونَـخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المـعاصى. [لسان العرب ـ مادة : نزغ] ونزغ بين الرجلين : أفسد مـا بينهما. قال تعالى : ﴿ **مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴿١٠٠﴾** ﴾ [يوسف]
قال الجـصاص فى أحكام القـرآن (٣ / ٥١) : «وذلك يقتـضى أنه متى اسـتعاذ بالـله من شر الشيطان أعاذه منه وازداد بصيرة فى رد وسواسه والتبـاعد مما دعاه إليه ، ورآه فى أخسِّ منزلة وأقبح صورة لما يعلم من سوء عاقبته إن وافقه ، وهَوَّن عنده دواعى شهوته».

(٢) عن عثـمان بن أبى العـاص أنه أتى النبى ﷺ فـقال : يا رسول الـله ، إن الشيطان قـد حال بينى وبين صـلاتى وقراءتى، يلبـسـها علىَّ. فـقال رسـول الله ﷺ : «ذاك شيطان يُقـال له خنزب، فإذا أحسـسته فتعـوذ بالله منه. واتفل على يسارك ثلاثًا». قال : ففـعلت ذلك فأذهبه الله عنى . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٠٣) ، وأحمد فى مسنده (٤ / ٢١٦) .

وحين يعرف الشيطان أنك مُنتبه له مرة واثنتين وثلاثًا ، فهو يبتعد عنك ، فلا يأتى لك من بعد ذلك إلا إذا أحسَّ منك غفلة.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا طريقةالشيطان فى أَخْذ النصيب المفروض [1]من عباد الله ، فقال عن إبليس أنه قال :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ .. (١١٩) ﴾ [النساء]

والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍّ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصِّلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى.

أما إذا ذهب بعيدًا عن الغاية فهذا هو الضلال ، وكلما خَطَا الإنسان خُطْوة فى هذا السبيل ابتعد عن الغاية ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال المبين البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان لِيبعده عن مسالك الخير والفضيلة.

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق سبحانه فى هذه الآية:

﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ .. (١١٩) ﴾ [النساء]

والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيئًا يستمتع به من غير أنْ يخطو له خطْوة عمل تُقَرِّبه من ذلك ، ومثال ذلك: الإنسان الذى نراه جالسًا ويُمنِّى نفسه قائلاً: سيكون عندى كذا..وكذا وكذا. ولا يتقدم خُطْوة واحدة لتحقيق ذلك.

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٥٥٦) : «أى : معينًا مقدراً معلومًا. قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة» .

وكل أمنية لا تحـفز الإنسان إلى عـمل يُقرِّبه منها هى أمنيـة كاذبة ، ولذلك يُقال : « إن الأمـانى بضاعة الحـمقى » ، والشيطان يُمنِّى الإنسـان بأنه لا يوجد بَعْث ولا جزاء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**(١) **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ**(٢) **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وهذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرِجنا من جنة التكليف ، كـما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة.

إذن: ففـتنة الشيطان إنما جـاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحـينما عصى إبليس ربَّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قـمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدَّته وأوصلته إلى الكفر ، لأنه ردَّ الحكم على الله.

إن ذلك قـد أوغر صـدره وأحنقـه(٣) ، وجـعله يوغـل ويسـرف فى عـداوة الإنسان ؛ لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته.

---

(١) السوءة: مـا يقبح إظهـاره وينبغى سـتره. قـال تعالى : ﴿ **لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ** ﴾ [المائدة : ٣١] وجـمعـها سـوءات قال تعـالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا** ﴾ [الأعراف : ٢٦] . أى : يغطى عوراتكم ويسترها.

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون.

(٣) الوغر : احتـراق الغيظ. ومنه قـيل : فى صـدره علىَّ وَغْر، أى : ضـغن وعداوة وتوقـد من الغيظ. ويقال : وغر صدره عليه. إذا امتلأ غيظًا وحقدًا. [لسان العرب ـ مادة : وغر] والحنق : شدة الاغتياظ .

ويُعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ، ولن يكتفى بالذرية ، بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس ، كما وُجد شياطين الجن.

وهم مَنْ قال فيهم سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ(١) الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

وكلمة ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام]

تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية ، وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول ، وكل معصية فى الكون ، هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دُعاته ، ومُروِّجوه ، ومُعْلنوه.

إنهم يُزيِّنون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، بل إنهم يقولون إذا فعلوا فاحشة :

﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]

والله سبحانه لا يأمر بالفاحشة.

ولذلك يقول تعالى :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) الزخرف :الزينة . وقال ابن الأعرابى فى قوله تعالى: ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام] أى : حسن القول بترقيش الكذب . [لسان العرب ـ مادة : زخرف] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ(١) يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

والمنكر ليس مُحرَّمًا بالشرع فقط ، بل هو ما يُنكره الطَّبْع السليم ، وأيضًا فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر.

هنا يقول : أعوذ بالله منها ، وإن كان هو يُوقِعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر.

وعلى سبيل المثال: نجد رجلاً يُبيح لنفسه أن يفتح عينيه على عورات الناس ، ويتلذذ بهذه المسألة ، لكنه ساعةَ يرى إنسانًا آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلاً فإنه يرى فى ذلك أبشع المنكرات.

لذلك لابُدَّ أن تجعل للمنكر حَدّاً يشملك ويشمل غيرك ، ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلَّف به الآخرون.

وإياك أنْ تقولَ: إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى. إنه سبحانه كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعًا أن ينظروا إلى محارمك ، وفى هذا صيانة لك.

★★★

(١) البغى : العدوان والاستطالة على الناس. وقال الأزهرى: معناه الكبر، والبغى الظلم والفساد. والفئة الباغية: هى الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام العادل. [لسان العرب ـ مادة : بغا].

(٣) ... تقوى الله

تقوى الله هى مطلوب الحق سبحانه من عباده فى جميع التكليفات الشرعية. وقديمًا قالوا: التقوى هى العمل بالتنزيل ، والخوف من الجليل، والاستعداد ليوم الرحيل .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا يشمل زاد الدنيا والآخرة ، فإذا كان الزاد هو ما تقِى به نفسك من الجوع والعطش ، وهو خير لاستبقاء حياتك الفانية ، فما بالك بالحياة الأبدية التى لا فَناءَ فيها؟

ألاَ تحتاج إلى زاد أكبر؟

فكأنَّ الزاد فى الرحلة الفانية يُعلِّمك أن تتزود للرحلة الباقية.

والله سبحانه يُذكِّرنا بالأمور المُحسَّة ، وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرتَ بعُمق وصدق وحَقٍّ وجدتَ الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية.

ولذلك نلاحظ فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا [1] .. (٢٦) ﴾
[الأعراف]

هذا أمر حسىّ ، ويفيدنا ويزيدنا سبحانه «ريشًا». إنه سبحانه لا يوارى السوءة فقط ، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التى يتزين بها ، هذه الكماليات هى الريش ، أى : ما يتزين به الإنسان.

ثم قال الحق سبحانه:

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

أى : أنعمتُ عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منهما ، وهو «لباس التقوى».

فإن كنتَ تعتقد فى اللباس الحسىّ أنه ستر عورتك ، ووقاك حرًا وبردًا ، وتزينتَ بالريش منه ، فافهم أن هذا أمر حسىّ ، ولكن الأمر الأفضل هو لباس التقوى.

فاللباس الأول يُوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يُوارى العورات القيمية والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى.

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ [2] مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء]

(١) الريش والرياش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. [لسان العرب ـ مادة : ريش].
(٢) بث : نشر وكثّر. وبثثت الخبر فانبث ، أى انتشر. وانبث الجراد فى الأرض : انتشر. [لسان العرب ـ مادة : بثث] .

ومعنى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

أى : اجعلوا بينكم وبينه وقاية.

وماذا أفعل لأتقى ربنا؟

أوَّلُ التقـوى أنْ تؤمن به إلهًا ، وتـؤمن أنه إله بعقلك ، إنه سـبحانـه يعرض القضية العقلية للناس ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

ولم يقل : اتقوا الله . لأن الـله مفهومـه العبادة ، فـالإله معبـود له أوامر وله نَواهٍ ، والحق سبحانه لم يصل بالناس لمـرتبة الألوهية بعد ، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية.

والربُّ هو : المتولِّى تربية الشىء ، خَلْقـاً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، لكن أليس من حَقِّ المتولى خَلْقَ الشىء وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

إن من حقه ومسئوليته أنْ يضع للمخلوق قانون صيانة ، ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة.

بالله ، أيخلق سبـحانه البشـر من عدم ، وبعد ذلك يتـركهم ليتـصرفوا كـما يشاءون؟ أَمْ يقول لهم : اعملوا كذا وكـذا ، ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تُؤدُّوا مهمتكم فى الحياة ؟

إنه يضع دستور الدعوة للإيمان ، فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

إذن : فالمطلوب منهم أنْ يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن يُنفِّذوا أوامر هذا الربِّ الإله الذى خلقهم.

وبالله ، أيجعل خلقهم عِلَّة ، إلا إذا كان مشهودًا بها له؟

هو سبحانه يقول :

﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم ...① ﴾ [النساء]

كأنَّ خِلْقة ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكًا فيها لَقُلْنَا له: إنك لم تخلقنا ـ ولله المثلُ الأعلى .

أنت تسمع مَن يقول لك: أحسِن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مُقِرٌّ بأنه صنع أم لا؟

فإذا أقررتَ بأنه صنع ما صنع ، فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام.

إذن : فَقَوْل الله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم .. ① ﴾ [النساء]

فكأن خَلْقَ الله للناس ليس مَحلَّ جدال ولا شك من أحد ، فأراد سبحانه أنْ يجذبنا إليه ، ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعًا ، وهو أنه سبحانه خلقنا ، إلى الشىء الذى يريده ، وهو أنْ نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله.

وجاء سبحانه بكلمة «رب» ولم يقل : «اتقوا الله» ؛ لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عَدَم، وأَمَدَّ من عُدْم [1]، وتعهد وهو المربِّى ، ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يُراد منه.

وهو الذى خلق كل الكون ، فأحسن الخَلْق والصُّنْع.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم** [2] **مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وسخر الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فأنى يؤفكون** ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن: فقضية الخلق قضية مُسْتقرة ، وما دامت قضية مستقرة فمعناها: مَا دُمْتم آمنتم بأنِّى خالقكم فَلِى قدرة إذن ، هذه واحدة ، وربَّيتكم. إذن: فَلِى حكمة.

وإله له قدرة وله حكمة ، إما أنْ نخاف من قدرته فنرهبه ، وإما أنْ نشكر حكمته فَنُقِرّ بها.

واستقرار قضية الخَلْق فى أذهان الناس من مُشْركى العرب وغيرهم أمرٌ سَاقَه الحق سبحانه فى القرآن فى مواضع كثيرة.

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم: فقدان الشىء وذهابه. وغلب على فقد المال وقلَّته. والعَدَم: الفقر. وكذلك العُدْم. [لسان العرب ـ مادة : عدم]. وهذه المادة (عدم) لم ترد فى شىء من القرآن الكريم. وقد قال تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان : ١] أى : أنه سبحانه أوجد الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا يذكر لحقارته وضعفه. [تفسير ابن كثير ٤ / ٤٥٣].

(٢) المقصود بهم مشركو العرب، فَهُمْ كما يقول ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٤٢١) : «معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومُقدِّر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم... وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك».

فقال سبحانه:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

فَخَلْق هذه الأشياء لا أحدَ يستطيع ادعاء أنه خلقها ، وحتى لو سألت الكفار أنفسهم عمَّن خلقهم فسيقولون : الله. لأن عملية الخَلْق والإيجاد من الممكن أن يدعيها مَنْ لم يعملها ، ومع ذلك لم يَدَّعها أحد من البشر ؛ لأنها عملية أكبر من أنْ يدعيها أحد ؛ لأنها فوق قدرات البشر مجتمعين.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

فهذه الآلهة لن تستطيع أن تخلق أقلَّ شيء وهو الذباب ، حتى ولو اجتمعوا لتحقيق هذا الهدف ، وليس هذا فقط ، بل إن الذباب لو سلبهم شيئًا لا يستطيعون استرداده منه ، فإنْ كانت عملية خَلْق الذباب صعبة عليكم فنتحداكم أنْ تستنقذوا ما يسلبه الذباب منكم.

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجًا ، فعليكم أنْ تجعلوا بينكم وبينه وقاية ، تحميكم من صفات الجلال ، وتُقرِّبكم من آثار صفات الجمال ، وأنْ تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان يعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

ويقول أيضًا :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

ويقول أيضًا:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]

ولذلك ؛ أمَا كان يجب أن نُرهِف الآذان ، ونُعمِل الأبصار ، لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

أمَا كان يجب أن نقول: يا مَنْ خلقتنا ، ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمر الكون الذى أوجدتنا فيه؟

فكيف ـ إذن ـ يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ، لشمس أو لقمر، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم؟

كيف ذلك ، والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به؟

وهل هناك إله بغـيـر منهج يأمـر به عبـاده ، ومَنْ عـبـد الشمس هل كـلَّفَتْـه الشمس بشىء ؟ .. لا.

إذن: يتسـاوى عندها مَنْ عبـدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هـذا نَقْص لألوهية كُلِّ معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس]

وهذه كلمة قالها جميع الأنبياء والـرسل لأقوامهم ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك.

فقالها هود لقومه عاد :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]

وقالها نوح لقومه ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

وقالها صالح لقومه ثمود ، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وقالها لوط لقومه ، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقالها شعيب لقومه ، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء]

والتـقوى من الوقـاية.. والوقاية هى الاحـتراس والبـعد عن الشـر .. لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٦﴾﴾

[التحريم]

أى : اعملوا بينكم وبين النار وقاية ..احترسوا من أنْ تقعوا فيها.

ومن عجـيب أمر هذه التـقوى ، أنك تجـد الحق سبـحانه وتعالـى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار).

كـيف نأخذ سلوكًـا واحدًا تجـاه الحق سبـحـانه وتعالى ، وتجـاه النار التى سيُعذب فيها الكافرون؟!

الله تعالى يقول : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ ... ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران]

أى : لا تفعلوا مـا يُغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قـد جعلتَ بينك وبين النار وقاية ، بأن تركتَ المعاصى وفعلتَ الخير.

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة]

كيف نتقيه ، بينما نحن نطلب من الله كُلَّ النعم وكُلَّ الخير دائمًا؟

كيف يمكن أنْ يتم هذا؟ وكيف نتقى مَنْ نحب؟

نقول: إن لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال.

أما صـفات الجلال فتـجدها فى : القهـار ، والجبّار ، والمـذلّ ، والمنتقم ، والضَّـار. كل هذا من متـعلقـات صفـات الجـلال ، بل إن النار من مـتعلقـات صفات الجلال.

أما صفات الجـمال فهى : الغفار ، والرحيم ، وكل الصـفات التى تتنزَّل بها رَحَمات الله وعطاءاته على خَلْقه.

فإذا كنت تَقِى نفسك من النار ـ وهى من متعلقات صفات الجلال ـ لابُدَّ أنْ تَقِى نفسك من صـفات الجلال كلها ؛ لأنه قـد يكون من متعلقاتهـا ما هو أشدُّ عذابًا وإيلامًا من النار.

فكأنَّ الحقَّ سبحانـه وتعالى حين يقول: ﴿**اتقوا النار**﴾ و﴿**اتقوا الله**﴾ يعنى أن نتـقى غضب الله الذى يُؤدِّى بنا إلى أنْ نتـقى كل صفـات جلاله ، ونجـعل بيننا وبينها وقاية.

فمن اتقى صفات جلال الله ، أخذ صفات جماله.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

«إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة».

وكـان المـنطق يقتـــضى أن يقـول رســول الله ﷺ : «**تجلى الرحمن بالمغفرة**» ، ولكن ما دامت هناك ذنوب ، فـالمقام لصـفة الجبـار الذى يُعذِّب خَلْقه بذنوبهم ، فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار.

وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفَّار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة.

فسـاعةَ تأتى كلمة «جـبار» يشعـر الإنسان بالفـزع والخوف والرعب ، لكن عندما تسـمع «تجلى الجبـار بالمغفـرة» فإن السعـادة تدخل إلى قلبك ؛ لأنك

تعرف أن صاحب العقوبة ـ وهو قادر عليها ـ قد غفر لك.

والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ، ولكنها مأمورة.

إذنْ: فاستعِذْ منها بالآمر ، أو بصفات الجمال فى الآمر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران]

وهذا فيه سَلْب لمضَرَّة ، وإيجاب لمنفعة ، فإنه يُوجِب لك منفعة الفلاح ، ويسلب منك مَضرَّة النار.

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

لأنه إذا زُحزِح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنة ، فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزِح عن النار وأُدْخل الجنة؟

إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا هو السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا؟

كى نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه؟

وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار؟

إن الوسيلة هى اتباع منهج الله ، الذى جاء به على لسان رسوله ﷺ .

فاتقاء الله هو باتبـاع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهجِ فـلا يُعصى ، ويُذكر فـلا يُنْسى ، ويُشْكر فلا يُكْفـر [1]، وطريق الطاعـة يوجـد فى اتبـاع المنهج بـ «افعل» و «لا تفعـل»، ويذكر ولا ينسى؛ لأن العبد قـد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغَلُ العبدَ عن الله.

والمنهج يدعـوك أن تتذكـر فى كل نعمـة : مَنْ أنعم بها، وإياك أن تُنسِـيك النعمة المنعم ، وليشكر العبدُ الله ، ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله.

وما دُمْتَ أيها الـعبد تستقـبل كل نعمة وتردُّها إلى الله ، وتقـول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله» [2] ولا تكفر بالنعم. أى : أنك تؤدى حَقَّ النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حَقَّها ، تعنى أنها نعمة شكر العبدُ ربَّه عليها ، ولم يكفُر بها.

وقد قال تعالى:

---

(١) ذكره ابن كـثيـر فى تفسيـره (١ / ٣٨٧) من قول ابن مـسعود رضى الله عنه مـوقوفًـا عليه. وقال: «وقد رواه ابن مردويه... وكـذا رواه الحاكم فى مستدركه .. عن ابن مسعـود مرفوعًا فذكـره، ثم قال : صحيـح على شرط الشيخـين ولم يخرجاه كـذا قال. والأظهر أنه مـوقوف والله أعلم».

(٢) وقد ذكر تبارك وتعالى هذا فى قرآنه فقال : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ [الكهف : ٣٢ ـ ٣٩]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ.. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد قيل فى معنى ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ..﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران]

أى : أنه لا تأخذك فى الله لَوْمة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك ، هذا ما يُقَال عنه «حق التقى». أى : التقى الحق الذى يُعتبر تقيًا بحقٍّ وصدق(١).

وقال العلماء: إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم: مَنْ يقدر على حَقِّ التُّقى؟

ويُقال : إن الله أنزل بعد ذلك (٢) :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ..﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

وقد يتساءل متسائل :

الذى يتقى الله حَقَّ تقاته خيرٌ ، أم الذى يتقى الله ما استطاع؟

طبعًا ، حقّ تقاته خَيْرٌ من قَدر الاستطاعة ، فالذى يُطبِّق الآية الكريم: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ..﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران] يُحقِّق خيراً أكبر فى عمله ، ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حَقَّ تُقَاته إلا فى أعمال محدودة جداً.

إذن: الخير هنا أكبر، ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود.

---

(١) قال ابن عباس : «حق تقاته» أى : «يجاهدوا فى سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم» ذكره ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣٨٨) .

(٢) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣٧٧) أن سعيد بن جبير قال فى هذه الآية : «لما نزلت هذه الآية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] تخفيفًا على المسلمين».

أما قوله تعالى:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ..﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

فإنه قـد حَدَّد التـقوى بقـدر الاستطاعـة ؛ ولذلك تكون الأعمـال المقـبولة كثيرة، وإنْ كان الأجر عليها أَقَلَّ.

عندما نأتى إلى النتيجة العامة .. أعمال أجرها أعلى، ولكنها قليلة ومحدودة جداً .. وأعمال أجرها أقلّ ولكنها كثيرة.. أيهما فيه الخير؟

طبعًا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقلّ فى مـجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع.

فاتقاءُ الله حَقَّ تقاته خَيْرٌ من اتقاء الله قَدْر الاستطاعة ، ولكن فى المحصِّلة العامة فالخير فى الآية التى نصَّتْ على الاستطاعة.

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [النساء] المقصود بها آدم.
وقول الحق سبحانه : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾ ﴾ [النساء] المقصود بها حواء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

أى : يكفى أنْ تجعل من نفسك عَالَمًا ، هذا العَالَم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقـيته لأن يكون إلهًا واحـداً ، وإلهًا معبوداً ، مُـستحقـاً لتقوانا والخوف منه سبحانه.

فالحق سبحانه قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وهذا إخبار من الله تعـالى أنه خلق الناس من نفس واحدة ، هى نَفْس آدم ، وهو أيضًا استقراء فى الوجود ، وهو ما نسميه «التنازل للماضى».

لأنك لو نظرت إلى عـدد العَالَم فى هذا القـرن ، ثم نظرتَ إلى عدد العـالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هـذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله تجده رُبُع تعداد السكان الحاليين.

وكلما توغلتَ فى الزمن الماضى ، وتذهب فيـه ، وتبعد يقلُّ العدد ويتناهى ، إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا ما ذكره الله لنا.

ولقائل أن يقول : كيف تكون نفسًا واحدة ، وهو القائل سبحانه:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ونقول : إن الحق سـبحانه وتعالى خلق النفس الواحـدة ، وأوضح أيضًا أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر.

إذنْ : فالاستـقراء الإحصائـى فى الزمن الماضى يدلُّ على صِدْق القضـية ، وكذلـك كل شىء متكاثر فى الوجـود من نبات ومن حـيوان ، تجـدها تواصل التكاثر.

وإنْ رجـعتَ بالإحصـاء إلى الماضـى ، تجد أن الأعـداد تقلّ وتقلّ إلى أن تنتهى إلى أَصْل منه التكاثر.

إنه يحتاج إلى اثنين:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس]

ولماذا لم يَقُلْ زوجين وجاء الحق هنا بقوله:

﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ..﴿١﴾﴾ [النساء]

أوضح العلمـاء أن هذا دليلٌ على الالتـحـام الشـديد ؛ لأننا حـين نكون من نفس واحدة فكلنا ـ كل الخَلْق ـ فيها أبعاض من النفس الواحدة.

وقُلْنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتـر مكعب من مادة مُلوّنة حمراء مثلاً ، ثم وضعناها فى قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحـمراء قـد انتشـر فى القارورة ، وصـار فى كل قطرة من القارورة جـزءٌ من المادة الملونة.

وهَبْ أننا أخذنـا القارورة ووضعناها فى بـرميل ، ثم رججنا البـرميل جـيداً سنجد أيضًـا أن فى كل قطرة من البرمـيل جزءاً من المادة الملوّنة ، فـإذا أخذنا البرمـيل ورميناه فى البـحر فـستنسابُ المـادة الملونة ليصيـر فى كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة.

إذن: ما دام آدم هو الأصل، وما دُمْنَا ناشئيـن من آدم ، وما دام الحق سبحانه قد أخذ حواء من آدم الحىّ فصارت حيّة. إذن: فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جُزْء حىّ.

وبذلك يردُّنا الحق سـبـحانه إلى أَصْل واحـد ، لِيُـثيـر ويُحـرِّك فينا أصـول التراحم والتوادّ والتعاطف.

ومن فضل الله سبحانه أنه تعالى خلقنا جميعًا ، أى بنى آدم من نفس واحدة ليحدث أُنْـس التآلف فى حركة الحـياة ، ولكل جنس قانونه ونظامه والتـقاءاته ومعاشرته.

فلو أن الإنسـان خُلِق من أجناس مـختلفة لتـعـذَّر عليـه الائتلاف واتحـاد الحركة والأُنْس فى المعيشة ، فخلقكم من نفس واحدة.

وأيضًا ليثبت التساوى فى الأصل ، فلا مَزِيّة لأحد لأنه خُلِق من جنس أعلى من الآخر.

ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما يردُّنا إلى الأصل يقول الرسول ﷺ :

«كلكم لآدم ، وآدم من تراب» (١)

أى: لا فَضْلَ لأحدكم على الآخر إلا بحُسْنه فيما يستقبل عن ربه.

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

ولا بُدَّ أن يحدث تعايش بينهم ، وحـركة الحياة تجمـعهم ، فلابُدّ أن يكون بينهم إِلْفٌ فى أنْ يكونوا من جنـس واحد ، فلا بُدّ للمـجتـمع أن تكون النفس واحدة ، حتى تتساند حركته ، ويكون هناك إِلْفٌ ومودَّة ورحمة.

وما النفس الواحدة؟

فآدم عليه السلام خُلِق بالشكل المعروف ، والحق سبحانه قال عن آدم:

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فـتح مكة فقال: يأيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عـبية الجـاهلية وتعـاظمها بآبائهـا، فالناس رجلان: بر تقـى كريم على الله ، وفاجر شـقى هيِّن على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » أخرجـه الترمذى فى سننه (٣٢٧٠) وأخرجـه من حديث أبى هريرة الإمام أحمـد فى مسنده (٢/ ٣٦١) وأبو داود فى سننه (٥١١٦) .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ(١) وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي..(٢٩) ﴾ [الحجر]

لم يتكلم الحقُّ سبحانه عن حواء، أخلقها منه؟ أم خلقها خَلْقاً مثل خَلْق آدم وسوّاها مثله، ثم طمرها فى خَلْق آدم، مما يدلُّ على أن المرأة محجوبة حتى فى قصة الخلق.

والحق سبحانه حينما تعرَّض لقصة آدم عليه السلام لم يوضح لنا كيف تَمَّ خَلْق حواء، ولكنه أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً(٢) حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وليس لأحد أن يقول لنا: إن حواء كانت ضِلْعًا من آدم؛ لأنه قد يقول قائل وله الحق:

ولماذا نأخذ معنى خَلْق حواء من نفس آدم بمثل هذا التصور؟

ألم يَقُل الحق سبحانه:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ..(١٢٨) ﴾ [التوبة]

أأخذ الله محمداً ﷺ من نفوسنا وكوَّنه؟

---

(١) سويته: سويت خلقه وصورته. [راجع: تفسير القرطبى ٥ / ٣٧٤٧]. وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة]

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآيات: «أى: فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقًا آخر سويًا سليم الأعضاء ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره».

(٢) رَغُدَ العيش: اتسع وطاب. وقوله: ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة]

أى: أكلا طيبًا مُوسَّعًا عليكم فيه.

لا ، إنما هو رسول من جنسنا البـشرى ، وكأنه سبحـانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خَلْق حواء قد انطمـست معالمه عنَّا ، ولأنه أعطانا بيـان خَلْق آدم وتسويته من طين ومراحل خَلْقه إلى أنْ صار إنسانًا.

ولذلك يجوز أن يكون قد جـعل خَلْق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول، وبعد ذلك تكون حواء مثله.

فيكون قوله سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

أى : من جنسهـا ، خلقها من طين ثم صَـوَّرها الخ ، ولكنه سبحـانه لم يُعِد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم.(١)

أو المـراد من قـوله (منهـا) أى : من الضـلع ـ وهذا شيء لم نشـهـد أوله ، والشيء الذى لم يشهـده الإنسان ، فالحـجة فيه تكون مِـمَّنْ شهده ، وسبـحانه أراد أن يرحـمنا من متـاهات الظنون فى هذه المـسألة ، مـسألة كـيف خلقنا ؟ وكيف جئنا ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(٢) ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٤٦٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «**إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها**» قال النووى فى شرحه: «فيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم ، وبيَّن النبى ﷺ أنها خلقت من ضلع».
وقال ابن كثير فى تفسيره (١ / ٤٤٨) : «خلقت حواء من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه».

(٢) العضد: ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد. قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾** ﴾ [الكهف] أى : أعوانًا مساعدين.

وما داموا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ، ولا خَلْق أنفسهم ، فلا بُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله، فما ينبئنا به الله عن خلق السماوات والأرض ، وعن خلقنا هو الحقيقة ، وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف.

فالحق سبحانه لم يُشْهد أحدًا على كيفية خَلْق السماء والأرض وخَلْق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخَلْق بعيدًا عن القرآن .

فإنْ حُدِّثْتم كيف خُلِقْتم بصورة تختلف عَمَّا جاء في القرآن ، فقولوا : كذبتم.

وقد أخبرنا الحق سبحانه عن كيفية الخَلْق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسانَ من التراب والماء فصار طينًا ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورةَ الإنسان ، ونفخ فيه الروح ، وآخرُ مراحله في الإيجاد هي الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة في الموت.

فعظمة الله سبحانه أنه خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، خلق الرجل وخلق الأنثى ، وهي من جنسه ، ولكنها تختلف معه في النوع ، بحيث إذا التقيا معًا أنشأ الله منهما رجالاً ونساء.

ولذلك يقول الحق تعالى :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً..(١) ﴾ [النساء]

ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذي ربط الرجل والمرأة برباط تحمُّل مسئوليات عُمْران الكون ، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذَّة ، ثم تعب وتضحيات في سبيل الأبناء.

إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسىً فى حدود أوامر الله [1]، هذا التأمل يجعلنا نقول :

إنه لولا عطاء الحق لنا من انسجام وحنان ومودة وترابط ولذة ، لما كان قادراً على تعمير الكون.

إن قمة اللقاء الذى يحدث منه التوالد مصحوبة بلذة ، وذلك من حكمة الخالق جَلَّ وعَلاَ ، حتى لا يهرب الإنسان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملاً فى الأرض.

وبهذا تتحقق عمارة الأرض التى قال عنها الحق سبحانه:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . ﴿٦١﴾ ﴾ [هود]

والحق سبحانه جَلَّتْ مشيئته فى الإنشاء ، فهو ينشئ الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإنْ أرجعتَ هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض، والأرض مخلوق من مخلوقات الله.

---

(١) استمتاع الرجل الحسى بزوجته له حدود وله آداب على الزوج أن يلتزم بها:
- فتستحب المداعبة والملاعبة والملاطفة والتقبيل والانتظار حتى تقضى المرأة حاجتها.
- وأمر الإسلام بستر العورة فى كل حال، إلا إذا اقتضى الأمر كشفها ، ويجوز كشفها عند الجماع ، ولكن لا ينبغى أن يتجرد الزوجان تجردًا كاملاً.
- ويُسن أن يسمى الإنسان ويستعيذ عند الجماع.
- يحرم التكلم بما يجرى بين الزوجين أثناء المباشرة ، وهو أمر مخالف للمروءة.
- يحرم إتيان المرأة فى دبرها ، ولا حرج فى إتيان النساء بأى كيفية ، ما دام ذلك فى الفرج.
[راجع كتاب فقه السنة ـ للشيخ سيد سابق ٢ / ٢٤٣- ٢٤٥].

فمنىُّ الزوج وبويضـة الزوجة يتكوَّنان من خُلاَصة الدم ، الذى هـو خُلاَصة الأغـذية وهى تأتى من الأرض ، فـسواء رمـزتَ لآدم بإنشـائه من الأرض ، أو أبقيتها فى ذريته ، فكلُّ شىء مَرَدُّه إلى الأرض.

إذن: فهى عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة.

والحق سبحانه حينما يقول:

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ..(١) ﴾ [النساء]

أى: من آدم وحواء . واكتفى تعالى بأن يقـول : «نساء» ولم يَقُلْ : كثيرات، لماذا؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقلَّ فى العدد من الأنوثة. وأنت إذا نظرتَ مثلاً فى حقل فيه نخل. تجـد كَمْ ذكراً من النخل، وكم أنثى؟ ستجد ذكراً أو اثنين.

إذن : القلَّة فى الذكورة مقصودة ؛ لأن الذَّكَـر مُخصَّب ، ويستطيع الذَّكر أن يُخصِّب آلافًا.

فإذا قال الله سبحانه:

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ..(١) ﴾ [النساء]

فالذُّكورة هى العنصر الذى يُفترض أن يكون أقلَّ كـثيراً ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة؟

لابد أن يكون أكثر.

ونريد أن نفهم هـذه كى نأخذ منها الدليل الإحـصائى على وجـود الخالق ، فهو سبحانه: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ..(١) ﴾ [النساء]

والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيُبَثُّ منه أكثر ، وبعد ذلك يُبَثُّ من المبثوث الثانى مبثوثًا ثالثًا ، وكلما امتددنا فى البَثِّ تنشأ كثرة.

وعندما تنظر لأىٍّ بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقلَّ بكثير جدًا من تعداده الآن.

مثال ذلك : كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقلَّ عددًا ، ومن عشرة قرون كان أقلَّ ، ومن عشرين قرنًا كان أقلَّ.

إذن : فكلما امتدَّ بك المستقبل فالتعداد يزيد ؛ لأنه سبحانه يبثُّ من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيرًا ونساء ، وسيبث منهم أيضًا عددًا أكبر.

فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفادًا ، وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد ، وقد يرى أحفاد الأحفاد.

إذن : كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد ، وكلما رجعتَ إلى الماضى يقلُّ ، فالذين كانوا مليونًا من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين ، والاثنان هما آدم وحواء.

فعندما يقول الحق سبحانه إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أنْ تُسلسل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاء؟!

الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

والحق تعالى بعد أن يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..(١) ﴾ [النساء]

يقول بعد هذا فى نفس الآية:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ..(١) ﴾ [النساء]

لقد قدَّم الحقُّ سبحانه الدليل أولاً على أنه إله قادر ، وخلقكم من عَدَم ، وأمدَّكم من عُدْم ، وسخَّر العالم لخدمتكم ، وقدَّم دليل البَثِّ فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله ، فلا بُدَّ أنْ تتلقَّوْا تعليماته ، ويكون معبودًا منكم ، أى : مُطَاعًا ، والطاعة تتطلب منهجًا: افعل ولا تفعل.

وأنزل الحق سبحانه القرآن كمنهج خاتم ، ويقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ..(١) ﴾ [النساء]

إنه سبحانه بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل ، إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم.

فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، ولذلك فأنت إذا أردتَ إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على مَنْ تطلب منه أمرًا تقول : سألتُك بالله أن تفعل ذلك.

وما دام قال هذا ، فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله تعالى هو الحق ، وأنه هو الذى يُسأل به ، وما دام قد سُئِل بالله فلن يُخيِّب رجاء مَنْ سأله.

إنه فى الأمور التى تريدون بها تحقيق مسائلكم تَسْألون الله ، وتسألون أيضًا بالأرحام ، وتقولون: بحق الرحم الذى بينى وبينك، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر. (١)

إذن: فمرة تُسألون بالله الذى خلق ، ومرة تُسألون بالأرحام ؛ لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى.

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

لأن كلمة «اتقوا» تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه.

والرقيب من «رقب» إذا نظر. ويقال «مرْقب». ونجد مثل هذا المرْقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة ، حيث يوجد «كشك» مبنىّ فوق السُّور ليجلس فيه الحارس كى يراقب.

ومكان الحراسة يكون أعلى دائمًا من المنطقة المحروسة ، وكلمة «رقيب» تعنى ناظرًا عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانًا. أى : ينظره .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه تلا هذه الآية وقال : إذا سئلت بالله فاعطه ، وإذا سئلت بالرحم فاعطه.
وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ **الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ** ﴾ [النساء : ١]. قال : قال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : «**يقول الله تعالى : صلوا أرحامكم، فإنه أبقى لكم فى الحياة الدنيا، وخير لكم فى آخرتكم**». [راجع الدر المنثور للسيوطى ٢ / ٤٢٤ـ طبعة دار الفكر بيروت ١٩٩٣ م].

صحيح أن هناك مَنْ يراه ذاهبًا وآتيًا من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقبًا ، فمعنى ذلك أن هناك مَنْ يرصده.

وسبحانه يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء]

فليس الله بصيراً فقط ، ولكنه رقيب أيضًا ، ولله المثل الأعلى . نحن نجد الإنسان قد يبصر مَا لا غاية له فى إبصاره ، فهو يمرُّ على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا مَنْ كان فى باله ، والحق سبحانه رقيب علينا جميعًا كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

★★★

(٤) ... رسالة الحق

لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفيةً لكل الرسالات التى سبقتْ ، وعلى الناس جميعًا أنْ يُميِّزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان .

البرهان الذى يرجح ما هو عليه ﷺ على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل.

ها هو الحق سبحانه يخاطب الناس جميعًا ، ليُصفِّى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول مُنبِّهًا كل الناس:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) ﴾ [النساء]

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَل [١] وعلى أديان ونحلٍ شتَّى ، فجاء البرهان بأن الإسلام قد جاء ناسخًا وخاتمًا. والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشىء مما كان عليه [٢] .

---

(١) الملل : جمع ملة ، وهى الشريعة والدين. قال أبو إسحاق : الملة فى اللغة سنتهم وطريقهم. [لسان العرب ـ مادة : ملل] .

(٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) .

وجاء محمد ﷺ بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل.

وهذه تصفية عقدية شاملة ، تتخلص بها البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة.

فمنهجُ الحقِّ سبحانه السابق على القرآن كان مطلوبًا من المنْزَلِ إليهم أنْ يحافظوا عليه ، وما دام قد طلب الحق سبحانه منهم ذلك ، فكان من الواجب أنْ يمتثلوا لطاعته ، لكنهم تركوا المنهج.

فكُلُّ منهج عُرْضَة ؛ لأنْ يُطاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعْصى.

ولكنهم لم يحفظوا الكتب ، بل حرَّفوا ما فيها بمراحل مختلفة:

منها : النسيان ، وهو مُتمثِّل فى قَوْل الحق سبحانه:

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة]

والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضًا دليلٌ على أن المنهج لم يكن على بالهم ، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لَظلُّوا على ذِكْر منه ، وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق سبحانه فيهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

وما لم يكتموه حرَّفوه ولَوَّوْا ألسنتهم به ، وقال الحق:

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران]

أى : أنهم يَلْوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله لِيُحرِّفوه عن معانيه ، أو يلوون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى.

إنهم عندما يَلْوون ألسنتهم بالكتاب يُحرِّفونه رغبةً فى التلبيس والتدليس عليكم ، لِتظنُّوا أنه من الكتاب المنزَّل من عند الله على رسولهم.

ولم يقتصروا على ذلك ، بل وضعوا من عندهم أشياء ، وقالوا : إنها من عند الله.

قال تعالى:

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)** ﴾ [البقرة]

وكان أَمْر حفْظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ، ولذلك قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا(١) وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ(٢) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ (٤٤)** ﴾ [المائدة]

فقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى : طلب منهم أن

---

(١) الذين هادوا : دخلوا فى اليهودية. والهَوْد: التوبة. هاد يَهُود: تاب ورجع إلى الحق ، فهو هائد. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى : تبنا إليك. [لسان العرب ـ مادة: هود] .

(٢) الأحبار جمع حَبْر. والحِبْر والحَبْر: العالم ، ذميًا كان أو مسلمًا ، بعد أن يكون من أهل الكتاب. قال أبو عبيد : معناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. [لسان العرب ـ مادة : حبر] .

يحفظوها ، وكان هذا أمرًا تكليفيًا ، والأمر التكليفى عُرْضة لأن يُطاع ، وعُرْضة لأن يُعصى.

فالحق سبحانه طلب منهم أنْ يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ما عدا النبيين ـ لم يُنفِّذوا ، وكان يجب أنْ يطيعوه ، ولكن أغلبهم آثر العصيان ، فلما عصى البشرُ المنهجَ ولم يحافظوا عليه ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن.

وكأنه قال : لقد جُرِّبتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حِفْظه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر]

ومصداق هذا النص أن بعض المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هَجْر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجبًا ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقًا يحافظون على القرآن تحقيقًا.

فتجدهم يكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة.

إذن : فالله يُسخِّر لحفظ القرآن حتى مَنْ لم يكن مسلمًا ، وتلك خواطر من الله ، ونحن نرى كل يوم مَنْ يبتعدون بسلوكهم عن المنهج ، لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن.

وهذا يُثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمرًا تكليفيًا ، بل هو إرادة الله.

وما دام الحق سبحانه هو الذى يحفظ المنهج ، فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه.

إذن: فالكتاب المهيمن هو القرآن.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . . ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» على أنه «مُؤْتَمن» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «رقيب» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «شهيد» قول صحيح.

والذين فسَّروا كلمة «مهيمن» بأنه «قائم على كل أمر» قول صحيح.

وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يُصدِّق على كل ذلك.

وباللازم لا يكون رقيبًا إلا إذا كان شهيدًا ، ولا يكون شهيدًا إلا إذا كان قائمًا على الأمر، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مُؤتَمنًا ومؤمنًا [1]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٦٥) : «هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] » .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى لِيُتِمّ نعمته على ذريته ، ويزيد رحمته على عباده ، فقال :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ(١) إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

فدعا بأن يرسل لهم رسولاً يُبلِّغهم منهج السماء ، حتى لا تحدث فترة ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم عليه السلام .

وكلمة ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة]

ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله ﷺ من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم.

ونحن نقول لهم: إن جَدَّنا وجَدَّكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن إسحاق. ومحمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق.

ولا حُجَّة لما تدَّعُونه من أن الله فضّلكم واختاركم على سائر الشعوب ، إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة ؛ لأنكم ظلمتُم فى الأرض ، وعَهْد الله لا يناله الظالمون.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

---

(١) الزكاة فى اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدْح. [لسان العرب ـ مادة : زكا] وزكا : طهر وصلح فهو زكىٌّ وهى زكية . قال تعالى: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم :١٩] طاهرًا صالحًا. وقال تعالى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف : ٧٤] طاهرة غير مذنبة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

[آل عمران]

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنَّة على مَنْ آمن فقط ؟ لأنه هو الذى انتفع بهذا ، أما الباقون فقد أهدروا حَقَّهم فى الأسوة ، ولذلك تكون المنة على مَنْ آمن.

وشاء الحق سبحانه أن يختم رسول الله الرسالات ، فأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أُمية ، لا تعرف شيئًا ، حتى لا يُقال عن الإسلام : إنه مجرد وَثْبة حضارية ، وجاء لهم بمنهج غلب الحضارات المعاصرة له: فارس والروم فى وقت واحد.

فالرسول إنما جاء بالقِيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، فجاء بالدين الحق ، ليظهره فوق أى ديانة فاسدة ، فيقول سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]

ولقائل أن يقول :

لماذا إذن وُجِدت فى العَالم أديان أخرى ، كاليهودية والنصرانية؟

ولماذا إذن هناك مَلاَحِدة ما دام الله قد قضى ألاَّ يوجد مع الإسلام دينٌ آخر؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مَرَّةً أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين، وأهل ديانات أخرى ، وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان ، وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم.

لأن أمور الحيـاة ستتعبـهم فى كل قضايا حياتـهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأنْ يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستُخلِّصهم من مشكلاتهم.

ولجوؤهم إلى أقـضية تتفق مع الإسـلام ـ مع كفرهم بالإسلام ـ هو شـهادة قوية علـى أن الإسلام جاء دينَ الفطرة ودين الـعقل ، وأن الكل سيـحتـاج إليه قهرًا عنه ، ومَنْ لم يأخذه دينًا فسيضطر إلى أنْ يأخذه نظامًا.

فأديان السـماء لا تتعـاند ، إنها كلها مُـتكَاتفة فى أن تصل الأرضَ بالسـماء على ما تقتضيه حالة العصر زمانًا ومكانًا.

وقديمًـا كان العالـم معزولاً عن بعـضه ، وكل بيئـة لها أجـواؤها وداءاتها ، فيـأتى الرسول ليـعالج فى مكان خاص داءات خـاصة ، لكن الله جـاء برسوله ﷺ بعد أن توحدتْ هذه الدَّاءاتُ فى الدنيا .

جاء رسولنا الكريم ليـعالج هذه الداءات العالمية ، وجـاء رسول الله مُؤيَّدًا بأوصافه ، ومُؤيَّدًا بتعاليمه التى تُخفِّف عنهم إصرهم [1] وأغلالهم.

والحق سبحانه يقول :

﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ** [2] **وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) الإصر : العهد الثقيل. وقيل : الإصر : الإثم والعقوبة للغوه وتضييعه عمله ، وأصله من الضيق والحبس. [لسان العرب – مادة : أصر].

(٢) العَزْر : النصر بالسيف. وعَزَره وعَزَّره: أعانه وقوَّاه ونصره. والتعزير ههنا: الإعانة والتوقير والنصر مرة بعد مرة . [لسان العرب ـ مادة : عزر] .

إذن: فطريق الفلاح كان مكتوبًا فى التوراة والإنجيل، وكان الأمرُ باتباع محمد ﷺ النبى الأمى موجودًا فى الكتب السابقة على القرآن.

وكانت البشارة بمحمد رسولاً من عند الله يأمر بكل الخير ، وينهى عن كل الشر ، ويُحِلُّ للناس كافة الأشياء التى تُحسن الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويُحرِّم عليهم أن يُزيفوا ويُغيِّروا المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ ، وألاَّ يستسلموا للعناد.

فقد جاء محمد ﷺ ليزيل عنهم عبْءَ تزييف المنهج ، فمَنِ اتبع نور رسول الله ﷺ أحسَّ بالنجاة والفوز ، ومَنْ لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء.

وأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ ، ويعرفون زمنه ورسالته.

يقول الحق سبحانه:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة]

فاليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ ، ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ، ومطلوب منهم أنْ يؤمنوا به.

إذن : فرسول الله معلوم مُقدَّمًا من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، فهم يعرفونه بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعْت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فَتْرة [1] من الرسل فليسألوا أهل الكتاب.

---

(١) الفَتْرة : ما بين كل نبيين. وفى الصحاح: ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . لسان العرب ـ مادة :فترا.

وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبيًا قادمًا سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قَتْل عاد وإرم.

إذن: فالصَّيْحة الإيمانية على لسان رسول الله ﷺ لم تكن مفاجئة للكون، وإنْ كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ (١) عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

فرسالة محمد ﷺ لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب، بل كانوا ينتظرونها، وكانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم، ولكنهم رفضوا الإيمان وأنكروا الرسالة عندما جاء زمنها.

ويقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ... (١٧٠) ﴾ [النساء]

والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف؛ لأن الحقَّ صِدْق له لَوْن واحد، فإذا رأى جمع من الناس حادثة واحدة، ثم جاء كل واحدٍ منهم فأخبر بها إخبارَ صِدْق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر.

أما إنْ سولت نفسُ بعض الناس لهم أن يتزيَّدوا فى الحادثة، فكل واحد سيحكى الحادثة على لَوْن مختلف عن بقية الألوان، وقد يسافر خَيَالُ أحدهم فى شطحة الكذب ويسترسل فيه.

---

(١) الاستفتاح: الاستنصار. أى: أن أهل الكتاب من اليهود كانوا يستنصرون على الكفار بالنبى الذى سيبعث آخر الزمان ويتوعدونهم بأنه سينصرهم عليهم فلما جاء الرسول كفروا به.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا:

لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أىِّ لون ، سواء في العقديات أو فى العبادات أو فى الأخلاق أو فى السلوك ، وستجدون كل شىء ثابتًا ، لأنه الحق.

فمهما اختلطت بالحق أشياءُ ، فهو كحق يُبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث ويُنحِّيها عنه ، فإنْ عَلا الباطل يومًا على الحق فلنعلم أنه عُلُوُّ الزَّبَد الذى يذهب جُفَاء (١) مَرْمِيًا به ومَطْرُوحًا.

وسيظلُّ الحق هو الحق إلى يوم القيامة ، فالحق لا يتناقض ولا يتغير.

وسبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ .. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء]

والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأنَّ للحق ملائكة ، وأنَّ هناك بَعْثًا بعد الموت وحسابًا.

ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفْق مُقْتضياته ، وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا ينفصل عن العمل.

والخير يعلمه الله ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) جفأ الوادى غُثَاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزَّبَد: الجُفَاء. وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : باطلاً. [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

وهذا الخير أشد تثبيتًا لغيرهم ؛ لأن مَنْ يرَوْنهم يُنفِّذون حكم الله ، فلا بُدَّ أنهم وثِقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم ، إذن : فهو يثبت من بعدهم.

أو المعنى: لو أنهم فعلوا ما أُمِروا به من اتباع رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ؛ لأنه الذى لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيراً لهم فى دُنْياهم وأُخْراهم ، وأقوى وأشد تثبيتاً واستقراراً للإيمان فى قلوبهم ، وأبعد عن الاضطراب فيه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ..﴿٦٦﴾** ﴾ [المائدة]

أى : أنهم لو طَبَّقوا التوراة والإنجيل دون تحريف [1]، وآمنوا بالقرآن لَكَان خَيْرًا لهم ، والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع ، وهو القرآن الكريم.

وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله ﷺ ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل ـ من قبل تحريفهما ـ إنما يقود إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، وبما أنزله الله إليه.

---

(١) عن زياد بن لبيد أنه قال : ذكر النبى ﷺ شيئًا فقال : «**وذاك عند ذهاب العلم**» قال : قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة. فقال ﷺ : « **ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشىء**». أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ٢١٩) وابن ماجه فى سننه (٤٠٤٨) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٣) والدارمى فى سننه (١ / ٨٧). وقد صحح ابن كثير إسناد الحديث عند ابن ماجه.

واليهود ـ كما عرفنا ـ هم الذين توعَّدوا العرب بمجيء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله.

لقد أراد الحق سبحانه لأهل الكتاب أنْ يُحسِنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل ، حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن.

وهم بالإيمان لا يأخذون خَيْر الآخرة فقط ، بل يأخذون خير الدنيا أيضًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف]

فلو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمرًا ونهيًا ، لعاشوا فى كل خير ، فإن اتقوا ربهم أتَتْ لهم بركات من السماء والأرض.

فإنْ أردتَّها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النباتٌ ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة.

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس؟

ها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء]

فسبحانه هو الغنىٌ عن عباده وعن إيمانهم ، وسيظل كونه الثابت ـ بنظرية القَهْر والتسخير ـ هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سِوى سخط الكون عليهم لأنه مُسخَّر لهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِين (١) ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان]

فالسماوات والأرض لهما انفعال .. انفعال يصل إلى مرحلة البكاء، فهما لم تبكيا على فرعون وقومه، ولكنهما تبكيان حُزْنًا عندما يفارقهما الإنسان المؤمن المصلى المطبِّق لمنهج الله (٢).

فالأرض التى كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر، والنبات والأنهار والعيون وكل النِّعَم التى يَنْعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس، وهى تغضب وتسخط وتضجُّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها.

ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخَسف والتنكيل بهؤلاء العُصَاة الكافرين المشركين.

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السماوات والأرض على قوم فرعون، ففى المقابل لابد أنها تبكى على قوم آخرين، لأنها لا تبكى إلا على المهديين.

وقد حَلَّ لنا الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ هذه المسألة فقال:

«إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في الأرض، وموضع

---

(١) أنظره: أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه. وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤] أى: أمهلنى وأخِّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة.

(٢) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه**، وتلا هذه الآية: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩] ـ وذكر ـ أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحًا يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم». قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧ / ١٠٥): «قلت: روى الترمذى بعضه. رواه أبو يعلى وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف».

في السماء ، أما موضعه الذي في الأرض فَمُصلاّه ، وأما موضعه في السماء فمصعد عمله» (١) .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه يُحرم من أن واحدًا كان يصلى فيه ، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ، فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح.

والحق سبحانه يقول :

﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحج]

فالله سبحانه هو الغنى ؛ لأن له ما فى السماوات والأرض ، ومع ذلك لا ينتفع بما يملك ، ولكنه جعل هذا النفع لعباده وخلقه ، فهو بصفات خَلْقه أوجد الأشياء ، فلا أحد يعطيه شيئًا من عنده.

فهو تعالى غنىٌّ وحميد ، أى غنىٌّ محمود ؛ لأن غِنَاه يعود على الناس بالخير.

ولأن الله هو الغنى عن عباده لم يجبرهم على الإيمان به ، بل قال سبحانه:

﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

فالاختيار لك ، والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارئ على هذا الكون ، طارئ على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء ، وعلى أى شىء فى هذا الوجود.

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبدالله قال : سأل رجل عليًا رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان]

(٥) ... الرسول نور وبرهان

قد جاءكم النور. أيها الناس. وبيَّن لكم الرسول كثيرًا مما تختلفون فيه ، وتسامح عن كثير من خطاياكم ويريد أن يُجرى معكم تصفية شاملة.

فعليكم. أيها الناس. أنْ تلتفتوا وتنتبهوا، ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج.

والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى «افعل» و «لا تفعل» ، ومَنِ الذى يقول لنا : إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول.

ومَنِ الذى يدلُّنا على أن الرسول صادقٌ فى البلاغ عن الله؟

الذى يدل على صِدْقه هو قول الله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

[النساء]

فالذى جاء أولاً من ربكم هو البرهان على أن رسول الله ﷺ صادق فى البلاغ عن الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج ، والقرآن يتميز بأنه البرهان على صِدْق النبى وهو المنهج النُّورانى ؛ لأن البرهان هو الحُجَّة على صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله.

ونحن نعرف البرهان فى حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمريناً هندسياً فنأخذ المعطيات ، وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته ، ونعيد النظر فى المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب.

وإنْ كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هى العمل على إثبات المطلوب ، وهذا الكون فيه مُعْطيات ، وهو كَوْنٌ مُحْكَم ، ونلمس إحكامه فيما لا دَخْلَ لحركتنا فيه.

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

فإنْ كنتم مُعْجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق ، وإذا كان الحق سبحانه قد وضع لنا نظاماً دقيقاً هو المنهج بـ «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعتَ المنهج ، وتصرفتَ فى حياتك بمنهج الله ، ويكون الميزان معتدلاً.

إذن: فقد أعطانا الحق سبحانه مُعْطيات ، عندما ينظر الإنسان فيها نَظَرا فِطْرياً بدون هوىً ، فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان .

وهذه الكائنات الموزونة لا بُدَّ لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ، ولم تَأتِ هى من بعد خَلْق الإنسان ، ولا أحد من البشر يَدَّعى أنه صنع هذا الكون.

وكان لا بُدَّ أن تكون مهمة العقل البشرى أنْ يُفكِّر ويقدح الذِّهْن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بُدَّ أنْ يتوجه بالشكر لمن جاء ليحُلَّ له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتَحُلَّ لنا هذا اللغز ، ولتدُلنا على مطلوب عقلى فطرى ، فإذا جاء الرسول ليحُلَّ هذا اللغز ، ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليلُ صِدْق البلاغ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أنْ يأتوا بمثل معجزته.

إذن : فلا بُدَّ أن يؤمن كل البشر لو صَدَقوا الفهم ، وأخلصوا النية.

ما هو البرهان إذن؟

البـرهان هو المعـجـزة الدَّالة على صِدْق الرسـول فى البـلاغ عن الله ، هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى وآمن أنه لابُدَّ أن يكون موجوداً ، لكنه لم يتعرف على أنه «الله».

إن الرسول هو الذى يُبلِّغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يُقدِّم لنا المنهج.

إذن : فمجىء الرسل أمر منطقى تُحتِّمه الفطرة ويُحتِّمه العقل.

فالبرهان هو الإعجاز الدَّال على صِدْق المبلّغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة.

ونعلم أن كل رسول يأتى بمـعجزة تُثبت صِدْق بلاغـه عن ربه ، وقد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله.

مثال ذلك: أن معـجزة سيدنا موسى كانت العصـا ، لكن منهجه هو التوراة. وعيـسى عليه السـلام كانت معـجزته إبراء الأكـمه [1] والأبـرص [2] وإحياء الموتى بإذن الله ، لكن منهجه الإنجيل.

أما رسـولنا محـمد ﷺ ، وهو النبى الخاتـم فقد تجلَّتْ مـعجـزته فى أنها عَيْنُ منهجـه ، إنها القرآن ، ولم تنفصل المعجـزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كَافَّة [3]، وإلى أنْ تقومَ الساعة.

---

(١) الكمه فى التفسير: العَمَى الذى يُولَد به الإنسان ، وذكر أهل اللغة: أن الكَمَه يكون خِلْقة، ويكون حادثًا بعد بصر. [لسان العرب ـ مادة : كمه] .

(٢) البرص: مرض جلدى يُحدث بُقَعًا بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة.

(٣) عن جابر بن عبدالله الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة، أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢١) .

وليس لأحد أنْ يقـول «أنا رسول من عند الله» ، بل لابُدَّ أن يُـقدِّم بين يَدَى دَعْواه معجزة تثبت أنه رسول من الله.

ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدِّى ألاَّ يتحدَّى اللهُ حين يعطى رسولاً معجزة إلا بشىء نبغ فيـه القوم المبـعوث إليهـم ذلك الرسول ؛ لأن الحق سبـحانه لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالردُّ منهم يكون للرسول بقولهم:

إن هذا أمر لم نروّض أنفـسنا ولم نُدرِّبها عـليه ، ولو روّضنا أنفسنا عليـه لاستطعنا أنْ نفعلَ مثله ، وأنت قد جئتَ لنا بشىء لم نُعوِّد أنفسنا عليه.

لذلك يرسل الحق سبحانه الرسول ـ أى رسـول ـ بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرْسَل إليهم.

مـثال ذلـك ، موسـى علـيه السـلام ، أرسله الله إلى قـوم كـانوا نابغـين فى السحر ، فكانت معجزته تقرُب من السحر.

وإيَّاكَ أنْ تقولَ : إن معجزة موسى كانت سحراً ؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسـحر، ولكن جـاء بمعجـزة ، فَهُمْ كـانوا يُخيِّلون للـناس أشياء لـيستْ واقعًا.

لذلك تجد القـرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليـه ما يأتى به الله على يَدِ رسول من الرُّسُل من معجزة ، وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ(١) بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (٢) (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)** ﴾ [طه]

---

(١) الهَشُّ: جَذْبُك الغـصن من أغصان الـشجرة إليك ، ومنه قـوله عز وجل : ﴿ **وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي** ﴾ [**طه** : ١٨] قال الفراء: أى : أضـرب بها الشجر اليابس ليـسقط ورقها فتـرعاه غنمه. [لسان العرب ـ مادة : هشش].

(٢) الإربة والإرب : الحاجة. وجمعهما مآرب . أى : حاجات وأغراض .

كأن الحقَّ سبحانه يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها ، وتَهُشُّ بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر.

لذلك يأمره أنْ يُلقى العَصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة .

إن ﴿فَأَوْجَسَ(١) فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ..(٦٧)﴾ [طه]

هى التى فرَّقتْ بين سِحْر القوم ومعجزة موسى عليه السلام . لماذا ؟

لأن الساحر يُلقى العصا فيراها الناس حَيَّة ، وهو يراها عَصَا ؛ لأن الساحر لو رآها حَيَّة لَخافَ مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرتْ وصارتْ حَيَّة فعلاً.

ولذلك قال له الله :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه]

فلو كانت من جنس السحر لما أوجسَ فى نفسه خِيفةً ؛ لأنه سوف يراها عَصَا وإنْ رآها غيرُه حَيَّة ، وهذا هو الفارق .

وقوم عيسى أيضاً كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن : فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ؛ لأن الذى يُطيِّب جسماً ويُداويه لا يستطيع أنْ يُعيد الميت إلى الحياة ؛ لأن الإنسان إذا مَا ماتَ فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب .

ولذلك رقَّى الله آيةَ عيسى ، إنه يَشْفى المرضى ، ويُحيي الموْتَى أيضاً ، وهذا تَرقٍّ فى الإعجاز .

---

(١) أوجسِ القلب فزعاً : أحسَّ به. قال أبو إسحاق : معنى أوجس: وقع فى نفسه الخوف. وتوجَّس بالشىء : أحسَّ به فتسمَّع له. وتوجَّسْت الشىء والصوت إذا سمعته وأنت خائف. (لسان العرب ـ مادة : وجس)

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]

فهو قرآن عربى ؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية ، وكان لا بُدَّ من وجود معجزة تدلُّ على صدق بلاغه عن الله ، وأن تكون مِمَّا نبغَ فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدِّى ، ولا يمكن أنْ يتحدَّاهم فى أمر لا رِيادةَ لهم فيه ، ولا لَهُمْ به صِلَة ، حتى لا يقولَنَّ أحد: نحن لم نتعلم هذا ، ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه .

وقد كان العرب أهلَ بيانٍ وأدبٍ ونُبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق ، وتتفاخر كلُ قبيلة بشعرائها وخُطبائها المفوَّهين ، وكانت المباريات الآدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصب لها الحكام .

أى: أن الدُّرْبة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكومٌ عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُمْ أمة بَيَانٍ[1] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآنُ معجزةً من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أوَّلُ قومٍ نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونَسَقِ الكلام ، بل بالمبادئ التى تَطْغى على مبادئ الفُرْس والروم.

هذا هو البرهان .

---

(١) البيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسَن ، وأصله الكشف والظهور . (لسان العرب ـ مادة : بين).

أما النور فقد جاء أيضاً من أمـر حسِّى ؛ لأن النور يمنع الإنسانَ من أنْ يتعثَّر فى مِشْيته ، أو أنْ يُخطئ الطريق ، أو أنْ يصطدم بالأشياء فَيُؤذيها أو تُؤذيه .

إذن : هناك نور مـادىّ تبصـرون به الأشيـاء فتـحددون به مـواقعكم منهـا ، فيسلم منكم الضعيف ، وتسلمون أنتم من القوى عنكم.

هذا هو النور المادىّ ، وهو أمـر يشترك فيه المـؤمن والكافر ، لم يضنّ اللهُ به حتى على الكافر .

لكن هناك نور آخر جعله الله نورَ الهـداية ونورَ اليقين ونورَ القيم ، يأتى من الله على أيدى الرسل ، فإذا أخذ المؤمن النُّورَيْن ، فقد انتفع فى الدنيا ، ويمتدّ انتفاعه من الدنيا إلى انتفاعه فى الآخرة .

ولذلك قال تعالى:

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور]

والحق سبحانه حين يضرب مثلاً للمعـنويات ليتعرف إليها الناس فهو يُقدِّم لها بأمـر مادىّ يتـفق عليه الكُلُّ ، لِيُـقرِّب الأمـر المعنوىّ أو الغيـبىّ إلى أذهان الناس ؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد .

فلذلك هو سبـحانه وتعالى يُقرِّب هـذا الأمر ويُبيِّنه بأنْ يضربَ لنا مـثلاً من الأمور المادية المـحسَّة ، حتى تقـترب الصورة من الأذهان ؛ لأننا جمـيعاً نرى الماديات .

وبهذا يُلحق الحق سبحانه الأمر المـعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادىّ الذى نعرفه ، فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا.

وإذا كنا فى كَـوْنِ الله تعالى نجـد النهار إنمـا يكون نهاراً بإشـراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول ، فيتميز النهار بالضوء ، ويتميز الليل بالظُّلمة .

ومعنى النور فى الحسِّيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى مَا حوله ، حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إنْ كانت الدنيا ظلاماً فسيصطدم الإنسان بما حوله.

حينئذ يكون هناك أمر من أمرين:

ـ إما أن يكون الإنسانُ أقوى من الشىء الذى اصطدم به فيحطمه .

ـ وإما أن يكون هذا الشىءُ أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابةً تتناسب مع قوة الشىء الذى اصطدم به .

إذن : فالذى يحميك من أنْ تُحطِّم أو تتحطَّم هو النور الذى تسير على هُدَاه.

إذنْ : فساعةَ أن يأتى النور ، تتضح أمامك معالم الدنيا ، وتكون خُطَاك على بينة من الأمر ، فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه ، ولا يرتطم بك ما هو أقوى منك فَيُحطِّمك .

هذا هو النور الحسىّ ، وأكبر ما فيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخَلقْ ، المؤمن والعاصى ، والكافر والمشرك ، والمسخَّر من حيوان أو نبات أو جماد .

هذا النور هو نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النِّعَم لجميع خَلْقه فى الدنيا سواء مَنْ آمنوا ، أم مَنْ لم يؤمنوا .

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيِّز محدود ، وعلى قَدْر إمكاناته ، فواحد يُوقِد شمعة ، وواحد يأتى بمصباح

«جاز» صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون» ، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كُلٌّ على قَدْر إمكاناته .

فإذا طلعت شمس الله ، فهل يُبقى أحدٌ على مصباحه مُضَاءً ؟

وفى المعنويات نور أيضاً ، فالنور المعنوىّ يهديك إلى القيم ، حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التى قد تقابلك فى مسيرة الحياة.

إذن: فكل ما يهدى إلى طريق الله يُسمَّى نوراً .

والحق سبحانه يقول:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة]

وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن نوراً من خلق الله وهو الشمس ، إذا سطعتْ فالجميع يُطفئون مصابيحهم ، فكذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أنْ تُطْفأ بقية الأنوار من مقترحات أفكار البشر .

فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى ، أو يأتى آخر بفكر شيوعى ، أو ثالث بفكر وُجُودى [1] ؛ لأن كل هذه القِيم تُمثِّل أهواء متنوعة من البشر ، وتعمل لحساب أصحابها.

أما منهج الله تعالى فهو لصالح صَنْعة الله وهم البشر جميعاً ، فلا يحاول

(١) تنسب كلمة الوجودية إلى الوجود ، لا الوجود المطلق ، ولكنها تعنى أن يهتدى الإنسان إلى وجوده بنفسه ، لا بالتحليل النفسى والمراقبة الباطنية ، ولا يهتدى بهدى الأخلاق المقررة وأصول الآداب المتواضع عليها لأنها تنشأ قبل نشوء الأفراد ، وإنما نهتدى إلى وجودنا بثورة فى أعماق هذا الوجود ، أى بصدمة عاطفية قوية ، أو بيقظة من يقظات الضمير ، أو بضربة من ضربات التجارب تفصلنا من المجتمع الذى نعيش فيه . انظر كتاب (أفيون الشعوب) للعقاد ـ دار الاعتصام طبعة ١٩٧٥م ـ ص ٩٩ (المذاهب الهدامة) وانظر نقد هذه الفلسفة فى كتاب (الإسلام والمذاهب الفلسفية) للدكتور مصطفى حلمى ـ دار الدعوة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥م ـ ص (٢٢١ ـ ٢٣٦).

أحد أن يضع قِيماً للحياةِ تخالف منهج الله ؛ لأن الله قد بيَّن لنا منهج العبادة ومنهج القيم ؛ لذلك لا يصحُّ أنْ يأتى إنسان بشرع يخالف تعاليم الله .

إذن : فما دام الحق سبحانه قد أنزل نور الهدى منه فلابُدَّ أن نُطفئ جميعاً مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كله من منهج الله القويم والصالح لكل زمان ومكان ، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله .

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

أى: أن مُهِمَّة هذا الكتاب هى أنْ يُخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور الإيمان ؛ لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يُبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شىء ، فى العمر والرزق والمتعة .

ولو تطلع إلى نور الإيمان لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدىّ ، ولَعَمِلَ مْن أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى ، والطريق لأنْ يرى هو هذا الكتاب «القرآن الكريم » ؛ لأنه يُخرِج الناسَ إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الحقيقة واليقين .

فإذا أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات ، تماماً كما تُنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء]

ومعنى الاعتصام: التمسك ، ولا يتأتى إلا فى عُلُو . فيقال: «اعتصمت بحبل الإيمان» لأن للإنسان ثقلاً ذاتياً ، هذا الثقل الذاتى إنْ لم يرفعه سواه فإنه يقع بالإنسان .

وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان مُعلَّقاً فى الجو ويمسك بحبل ، ولا يوجد مَنْ يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض.

فمَنْ يعتصم بالله ويُمسِك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوىً والسُّقوط.

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلى علينا من الآيات ، ومَا سَنَّه لنا رسول الله ﷺ .

إذنْ : فَبَابُ الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة [1] الجاهلية ، فلا بُدَّ أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تُضِىء لهم ، فَيَرَوْا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولنلاحظ دائماً أن الله حين يُبيِّن جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته ، فسبحانه يقول مرة :

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)﴾ [الأعراف]

ومرة أخرى يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾ [النساء]

---

(١) الحمأة فى اللغة : الطين الأسود المنتن . فكأن الجاهلية بما فيها من فساد وبُعْد عن الدين كالطين الأسود المنتن الرائحة الذى انغمسوا فيه .

ما الفَرْق بين الاثنين ؟

إن الناس فى العبادة صِنْفان :

ـ منهم مَنْ يعبدُ اللهَ ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جَزَاءً لعبادته ولعمله الصالح .

ـ وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ، ولا تمرُّ الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله.

وما الفَرْق بين الجنة والرحمة ؟

إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمانٌ كَافٍ ، فمَنْ يرى الله فيه حُسْن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه الله فى الرحمة .

ومَجِيءُ رسول الله ﷺ برسالته الخاتمة هو فى نفسه رحمة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

فما دام رسول الله ﷺ هو خَاتَمُ الرسل وبُعِثَ للناس كلهم ، وللزمن كُلِّه إلى أنْ تقوم الساعة فهو رحمة من الله للعالمين جميعًا ، ولذلك كان لا بُدَّ أنْ يتسع دينه لكل أقضية الحياة التى يعاصرها الرسول ، والتى يعاصرها خَلَفُه من بعده إلى أنْ تقوم الساعة.

فلا يوجد شىء فى الحياة إلا ولكتاب الله فيه تشريع ، وللسنة النبوية فيه توضيح.

فالرسول ﷺ لم يكُنْ رحمةً لمن أُرسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم .